عبد العزيز بن عبدالله الخويطر

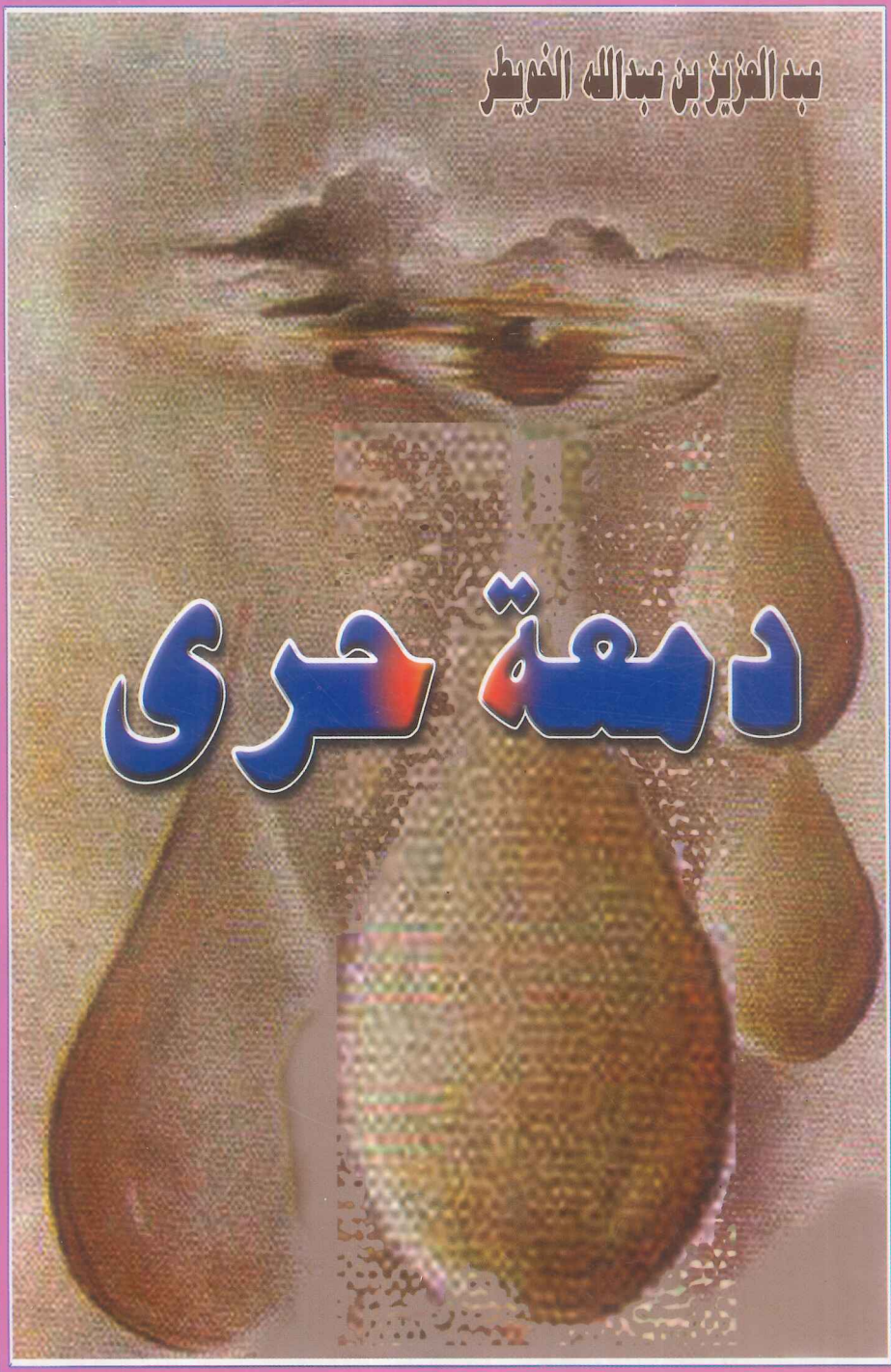

دمعة حرى

دمعة حرى

تأليف

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

الطبعة الأولى

الرياض ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

ح عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر ، ١٤٢٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الخويطر، عبدالعزيز بن عبدالله
دَمْعَةٌ حَرَّى./ عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر.- الرياض ،
١٤٢٤هـ.
٢٢٤ ص ، ١٤,٥ × ٢١ سم
ردمك : ١ - ٥٨٨ - ١٠ - ٩٩٦٠
١ - المقالات العربية - السعودية ٢ - الموت
أ - العنوان
ديوي ٨١٠ ١٤٢٤/٣٨٩٦

رقم الإيداع : ١٤٢٤/٣٨٩٦
ردمك : ١ - ٥٨٨ - ١٠ - ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ

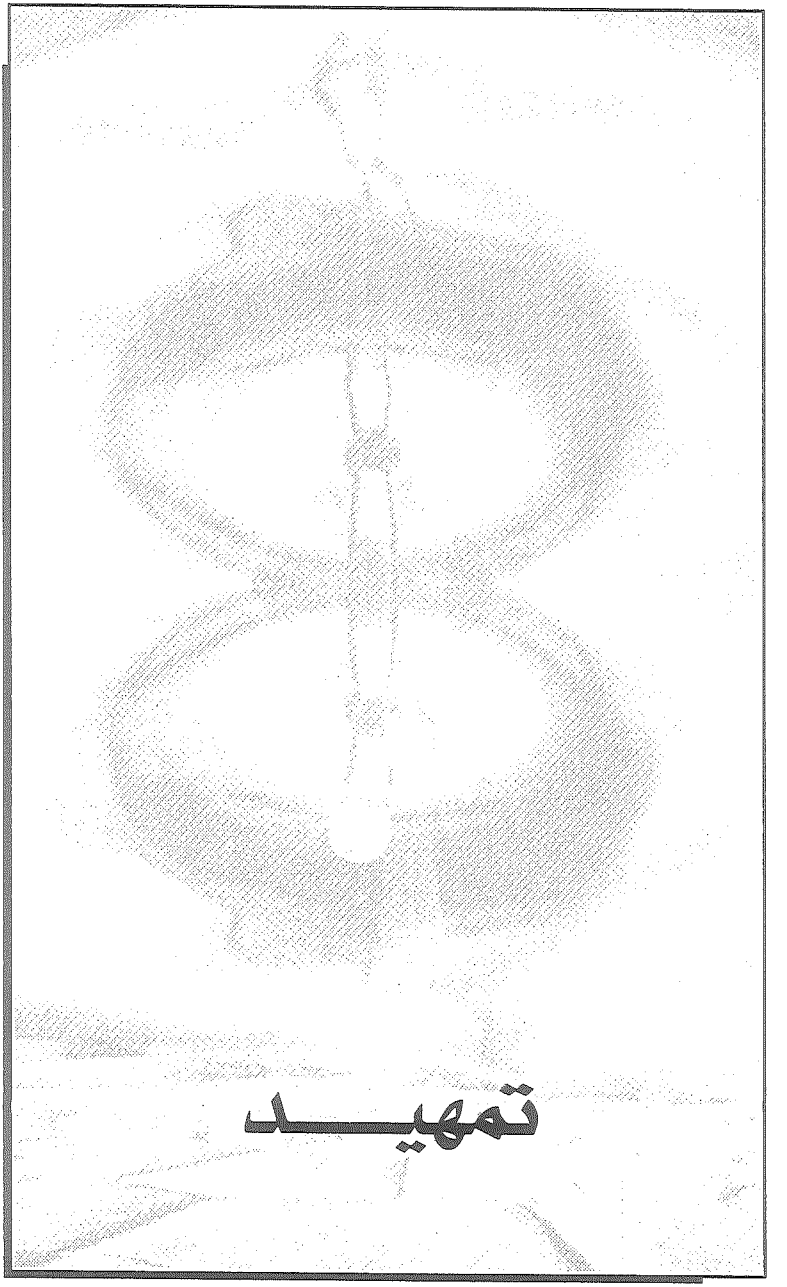

تمهيـــد

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

رغم أن الموت حق، وأنه مصير كلِّ حي، وكلُّ إنسان يؤمن بهذا، في كل زمان ومكان، يؤمن به الرجل والمرأة، لأن الموت حقيقة برهانها فيها، تُرَى في كل فرد، وفي كل بيت، وفي كل جيل، ولا ينجو من الموت أحد، ولا يسلم منه حي: حيواناً كان أو إنساناً، طيراً كان أو سمكاً، بل إن الجماد يبلى، وبلاه موت، ولا يبقى إلا وجه ربك ذي الجلال والإكرام!!.

مع هذه الحقيقة المسلَّم بها، فخبر الموت

المفاجئ، إذا نزل بعزيز غال، لا يقبل أحياناً بسهولة، أو من أول وهلة، بل يدافع ويدافع، ويردّ ويردّ، ومن وقع عليه الخبر، إذا لم يكن يعرف أن المتوفّى كان مريضاً، أو كان في حرب، أو في شيخوخة متقدمة، فإنه يسلّي نفسه بالمغالطة، والأمل المضلل، والتمنيات الكاذبة.

ينزل خبر الموت على الفاقد كالصاعقة، فيشلّ أدوات التفكير عنده، ويغلق عليه منافذ القبول، ويكون أقرب إلى الذاهل: عيون زائغة، وآذان صماء مغلقة، وأول ما يبدأ رد الفعل يبدأ المرء يتهم فهمه، ويشك في صحة ما سمعه، ويعتقد أن الأمر خلاف ما سمع،

وأنه عن شخص غير من عُني، أو أن في الخبر خطأ: نقصاً أو زيادة، أو لعل الناقل لم يتثبَّت، أو أنه استعجل، فخطف الخبر من راويه خطفاً، وعلى أي حال فلابد أن في الأمر لبساً، وأن من قيل أنه مات حيّ، ولابد إن كان مات أحد، فإنه غير الغالي المذكور.

وتستمر المدافعة بأيدي الأماني، وأكف الآمال، والتفاؤل المتخيِّل، ويبقى الأمر يدور في الذِّهن، وعلى اللِّسان، حتى لا يبقى في قوس الأماني منزع، وتحتضر الآمال، وتبهت الأماني، وتتضح صورة الخبر الصادقة، وتجبر الحواس كلها على التسليم بقضاء الله وقدره، وتنشط غدد، وتتبلد أخرى، ويذهب وضع

ويُقبل آخر، علامة الذاهب تشنج الحواس، وعلامات المقبل الدموع المنهارة، والعَبرات المتكسرة، والغصص في الصدر، والنحيب والبكاء يُعضدان علامات الحزن.

بعض الناس يكتم ويتصبَّر، ويسلّم بإرادة الله، وبعضهم يُشلّ تفكيره، وتتمرد عليه حواسه، فينهار، ويتدفق الحزن من شآبيب الدموع، ومع توالي الآهات وصلفها، وكلما عادت إليه الحقيقة زاد شجنه، وقد يمرض مرضاً ظاهراً أو باطناً، حاضراً أو مؤجلاً، وكلما تداعت صور ذكرى الميت، ومنها صور أعماله، ومنها صدى أقواله، زاد ما قد كان بدأ يخفّ، وعاد الأمر على أشدِّه.

تتجسد أبعاد أعمال الميت في نفس من فقده، ولا يتصور العيش بدونه، بل يتصور أن المكان سوف يكون خالياً منه، والأذُن لن تسمع صوته، والعين لن تراه، ولا يتصور أن مكانه سوف يُملأ، أو أن قيمته سوف تقل، أو أن صورته وهو يجول في البيت، أو في مكان نشاطه، سوف تبهت.

ويظلُّ الحزن يطحن النفوس، ويجثم على القلوب، ويوقف حركة الحواس، فلا الأكل أكل، ولا النوم نوم، وصورة الفقيد تعرض نفسها في كل مناسبة، وذكراه لا يغيب بَدْرها، ولا تكسف شمسها، المكان يذكِّر به، والزمان يذكِّر به، والأقوال تذكِّر به، والأفعال تذكِّر به،

والمناسبات تذكِّر به، فالأعياد تذكِّر بمشاركته بالفرح والبهجة بها، والمآتم تذكِّر بفقده، وتدمي جرحاً كاد أن يندمل، والأحلام مادة اللقاء به، وبعد اليقظة، تكون مادة الحلم سبباً في استدعاء الحزن، ولا يمحو كل هذه المعاناة إلا مرور الزمن، بلطف الله ورحمته.

في الساعات الأولى، والذهول في عنفوانه، يود الإنسان أن يرثي الغالي المبارح بما يعرفه عن حسناته، وما قد يخفف عن نفسه وعن آله وأصحابه، ولكن الذهن لا يواتيه، فلا يستطيع أن يجمع فكره، أو يرتبه، ولا أن يوائم بين أحاسيسه، والكلمات التي تليق به، فكل ما يخطه البنان، أو ينطق به اللسان، يقع دون

رضى الراثي في أغلب الأحيان، ولكن في أحيان أخرى يكون هذا الشعور الطاغي هو الملهم، وهو الجمرة التي نشرت رائحة عود النّد، فيتدفق الرثاء، وكأنه حبيس فُتح أمامه المنفذ، فاندفع ينقل صادق الشعور، ويرسم أقوى الصور في التأثير، فيُبكي قارئه أو سامعه.

فيما سوف يأتي في الوريقات اللاحقة حالات من تلك الحالات، وصور صادقة من تلك الصور، هي آهات، ودموع، وعبرات متكسرة في الصدور.

وإنا لله وإنا إليه راجعون..

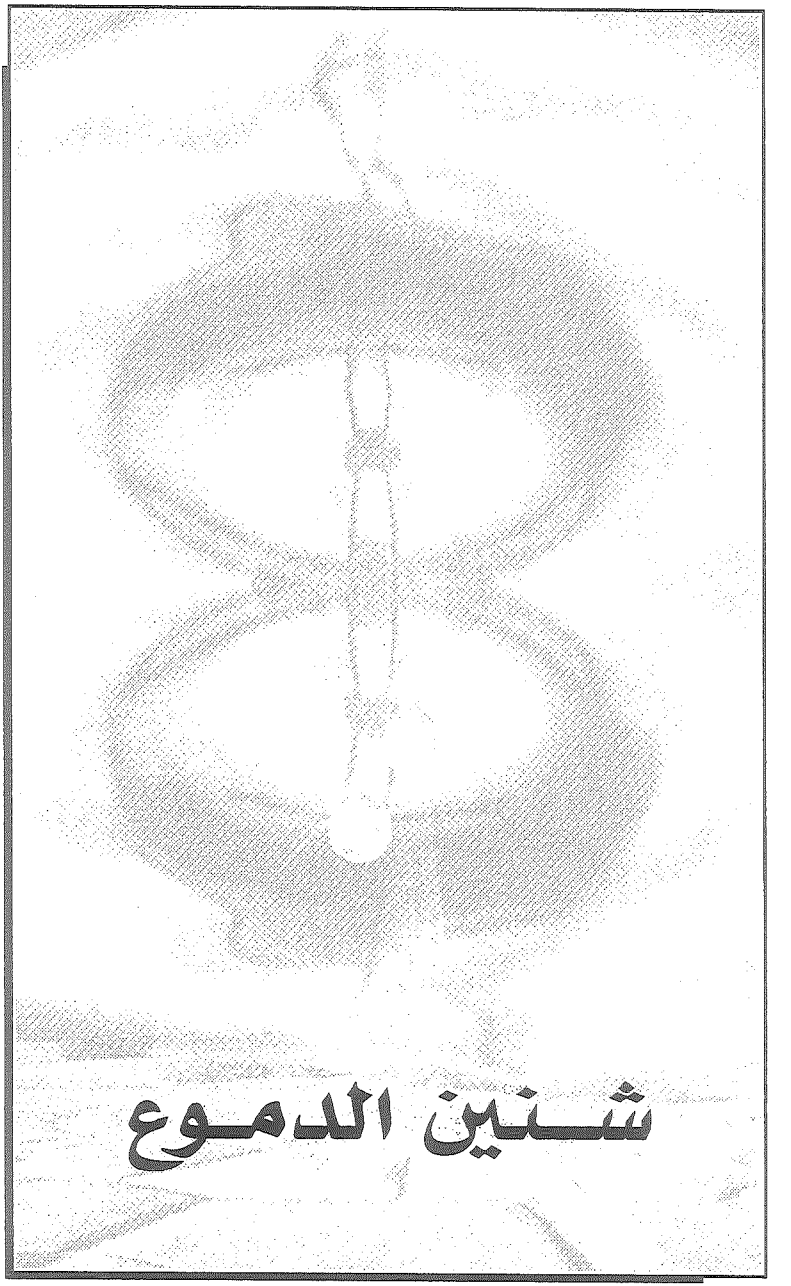

شنين الدموع

شنين الدموع[1]

هذا قول أقدّمه أمام كلمات قلتها في الصحف رثاءً في أناس أعزاءَ على نفسي، وعلى كثير من الناس غيري، ورأيت جمعها في مضمومة واحدة، علّ من قرأها يترحم عليهم، فتوافق دعوته باباً مفتوحاً للقبول، فيكسب الداعي، والمدعوُّ له، أجراً، وأكسب أنا من وراء ذلك ثواباً.

والذي زاد تصميمي أنني بحثت يوماً عن رثاء رثيت به عزيزاً فلم أجده إلا بعد عناء.

(١) الشنين : قطرات الماء، يقول امرؤ القيس في مطلع أبيات يرثي بها إخوته:

ألا يا عين جودي لي شنينا وبكّي للملوك الذاهبينا

(العقد الفريد، ص : ٢٧٢، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت).

وقبل أن أعرض ما رثيت به الأعزاء استحسنت أن أقدم نماذج مما جادت به الأذهان في العصور الماضية، عندما لم يكن هناك صحف ينشر فيها الرثاء، لقد كان مكان الرثاء في تلك العصور على فراش الموت، أو على القبر بعد الدفن، أو عندما يأتي ذكر الميِّت، أو عندما يزار قبره، وهلمّ جرّاً.

وسوف نرى كيف بدت العواطف، وبأي دثار تدثّرت، وبأي لون صبغت، وسنجد كذلك أن الخطوة، في بعض الأحيان، جاءت على الخطوة، وأن القول السابق منذ قرون جاء مثله عند أناس آخرين في زمانه، أو بعد زمانه، أو في زماننا، لم يختلف إلا الجلباب الذي

لبسه كل واحد من المتماثلين في القول، لأن منبع العاطفة واحد، فالفقيد غال، والفاقد حزين، والأمر بيد الله ليس بيد الناس، وما كتب في اللوح المحفوظ هو الذي ينفّذ بأمر الله، لا باختيار الناس.

وفي الأقوال الآتية عبر ومواعظ تدمع لها العين، ويدمي لها القلب، وتتكسر العبرات في الصدور، وقد جاءت بعض الأقوال في موتى موتهم لم يكن عن كبر ولا عن مرض، ماتوا وهم صغار، وهم ملء العين والقلب، وقد يكونون الوحيدين لوالديهم، وقد يكون الموت اختطف خير من في الإخوان، وقد يكون اختطفهم جميعاً، والنصوص الآتية تتكلم بلسانها، ولها

تأثيرها، وهي مأخوذة من كتاب «العقد الفريد»، لابن عبد ربه، وقد أفرد لها في هذه الموسوعة الفريدة حقًا، باباً أسماه: «فرش كتاب الدرة في النوادب والتعازي والمراثي»، وما أخذته قليل من كثير توسع فيه صاحب الكتاب، وإن لم يكتف القارئ بما جئت به من النصوص، وذَهَبَ هو إليها في هذا الكتاب الجامع، فحسناً فعل، وما أتيت به هنا يعرض نماذج لبضاعة مزجاة، وهي بضاعة مضمونة الربح، ولا مخاطرة في شرائها.

ومن أدل ما بدأ به ابن عبد ربه ما يشير إلى صدق الحزن ومصدره، يروي عن الأصمعي أنه قال:

قلت لأعرابي: مال المراثي أشرف أشعاركم؟

قال: لأنا نقولها وقلوبنا محترقة.

صدق الأعرابي، فدُخان الحزن هو الشعر، أو القول المؤثر، وهو لا يأتي إلا من نار في القلب مستعرة.

والمصائب كثيرة، ولكن مصيبة الموت فيها ما ليس في غيرها، يقول الحكماء:

«أعظم المصائب كلها انقطاع الرجاء»، والميت لا ترجى عودته، ولهذا تكبر المصيبة في الميت إذا كان عزيزاً.

وقال الحكماء أيضاً:

«كل شيء يبدو صغيراً ثم يعظم إلا المصيبة فإنها تبدو عظيمة ثم تصغر»، وهذا من رحمة

الله، وإلا لكان الحزن أتبع الميتَ الحيَّ، والدهر يجرح ويواسي.

وعمر بن عبدالعزيز عرف عنه الصلاح والتقوى والزهد، وحبه لابنه لا يستغرب، ولهذا لم يمكِّنه الحزن من أن يقول إلا كلمات محدودة دعا له فيها.

قال عمر بن عبدالعزيز لأبي قلابة، وقد وَلِيَ غسل ابنه عبدالملك: إذا غسَّلته وكفَّنته، فآذنِّي قبل أن تغطِّي وجهه، ففعل، فنظر إليه وقال: رحمك الله يا بُنيّ، وغفر لك.

عمر بن عبدالعزيز لا يفكر فيما يفقد في الدنيا، وما يشغله هو ما يرجو أن يكسبه في الآخرة، ولهذا دار بينه وبين ابنه عبدالملك،

الخيّر مثله، الحوار الآتي:

قال عمر بن عبدالعزيز لابنه (وهو على فراش الموت):

كيف تجدك يا بنيّ؟

قال: أجدني في الموت فاحتسبني، فإن ثواب الله خير لك مني.

قال: والله، يا بني، لأن تكون في ميزاني أحب إليَّ من أن أكون في ميزانك.

قال: وأنا، والله، لأن يكون ما تحب أحبَّ إليَّ من أن يكون ما أحبُّ.

الله أكبر، لم تغب الآخرة عن قلب عمر ولا عن قلب ابنه المحتضر، اللهم افسح لهما في جنّات النعيم.

وقد رثى مسلمة بن عبدالملك عمر بن عبدالعزيز وهو على فراش الموت بكلمات حق، قالها مختصراً كما طلب منه عمر بن عبدالعزيز، وهذه هي القصة:

لما احتُضر عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ استأذن عليه مسلمة بن عبدالملك، فأذن له، وأمره أن يخفِّف الوقفة، فلما دخل وقف عند رأسه، فقال:

جزاك الله يا أمير المؤمنين عنّا خيراً، فقد ألنت لنا قلوباً كانت علينا قاسية، وجعلت لنا في الصالحين ذكراً.

كلمات مختصرة، ولكنها معبِّرة وصادقة، وما قال صاحبها إلا حقًّا، وكأني به لو أعطي

المجال لأكثر.

وجَزَعُ الحبيب على الحبيب عند موته لا يُستغرب، إلا من بعض متعبدي الناس، لأنه يُؤمَّلُ منهم الصبر والاحتساب، ولكن الحزن لا يشعر به إلا صاحبه، وقد يلوم الناس الجازع، ولو كانوا في مكانه لما لاموه، وهذه حجة ممن ليم، فأبدَى الحجة ناصعة.

لما توفي سعيد بن أبي الحسن وَجَدَ عليه أخوه الحسن وجداً شديداً، فكُلِّم في ذلك فقال:

«ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب»؛ وقد وجد الحسن بهذا الحجة الدامغة، فقصة يوسف وأخيه وحزن والدهما عليهما خير ما يُقدَّم في هذا المقام.

ويستغرب بعض الناس عصيان الدموع عند الحزن، ولكن الواقع يؤكد هذا المظهر، وهذا الشعبي يروي عن إبراهيم أنه قال:

لا يكون البكاء إلا من فضل قوة، فإذا اشتدّ الحزن ذهب البكاء، وأردف قائلاً:

فلئن بكيناه لحُقَّ لنا
ولئن تركنا ذاك للصبر
فلمثله جرت العيون دماً
وبمثله جَمَدَت ولم تجر

وأحد أسباب الحزن ذكرها الأحنف عندما مرّ بامرأة تبكي ميتاً ورجل ينهاها، فقال:

«دعها فإنها تندب عهداً قريباً، وسفراً بعيداً»، صدق الأحنف.

والرسول ﷺ خير قدوة، ولو كان أحد يستطيع أن يُخفي حزنه لأخفاه الرسول ﷺ عندما مات ابنه إبراهيم، وليس له غيره، غلبته الدمعة، ولمس قلبه الحزن، وقد انتبه بعض من حوله ممن كان يظن أنه لو كان أحد يغلب الحزن، ويمنع الدمع، لكان هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فلما رأى هذا ممن حوله قال:

«تدمع العينان، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب».

وقول ما يغضب الرب قريب من الإنسان، لضعفه، وقد يجري المحذور على لسان المرء الحزين، فينطق لسانه بما لو عرض على القلب المؤمن لرده، ولاستغفر من مجرد مروره بذهنه،

ونذكر هنا مثلاً واحداً من أمثلة ذلك:

«لما مات محمد بن الحجاج (وقيل أبان بن الحجاج)، وجزع عليه أبوه جزعاً شديداً، وقال: إذا غسَّلتموه، وكفَّنتموه، فآذنوني، ففعلوا، فنظر إليه، وقال متمثلاً:

الآن لما كنت أكمل من مشى

وافترّ نابك عن شباة القارح

وتكاملت فيك المروءة كلها

وأعنت ذلك بالفعال الصالح

فقيل له: اتق الله، واسترجع، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

هذا رجل قاده الحزن عنوة إلى أن يقول ما عدّ اعتراضاً على قدر الله، ولما نُبِّه، وأوقظ من

سدرته تَنَبَّه، واسترجع، نسأل الله له المغفرة.

وعُرف عن رسول الله ﷺ العمق في معرفة ما يجيش في الأنفس، وما يتبع ذلك من توجيه سفينتها في خضم ما قد يكون بحراً هائجاً بالعواطف، وتبيَّنت رقَّته ولينه، وتقديره للظروف، عندما بدر من عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما عُدَّ من شدّة عمر، وهو من لا تأخذه لائمة فيما يرى أنه الحق، ولكن الرسول ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ نظر إلى الأمر من زاوية غابت عن عمر، لأن الفكرة الأولى سيطرت على ذهنه، وقادته عنوة إلى ما استوجب ملاحظة الرسول ﷺ والفكرة الأولى أحياناً تسيطر على الذهن، ولا تعطي المرء فرصة

تقليبها على أوجهها، مما قد يؤدّي إلى تركها، والسير خلف فكرة تغايرها تماماً، وهذه هي القصة:

«مر النبي ﷺ بنسوة من الأنصار، يبكين ميّتاً، فزجرهن عمر، فقال له النبي ﷺ: دعهن يا عمر، فإن النفس مصابة، والعين دامعة، والعهد قريب».

تعمّق ﷺ في الطبيعة البشرية، وعرف قوة الحزن على الميِّت، وضعف المرء أمامه، فعذر، وعذّر.

ومدى حزن الرسول عليه الصلاة والسلام ليس طريقه فقط دمع العين، أو حزن القلب، ولكن له مظاهر أخرى، تتبين عندما فقد حمزة

رضي الله عنه، فقد رأى نساء المدينة يبكين على قتلى أحد، فقال:

«لكن حمزة لا باكية له»، فسمع ذلك أهل المدينة، وعرفوا عمق حزنه، الذي لم تجد الدمعة أنها تكفي أن تطفر من عينه، لأنها لعمق الحزن تجمدت، لكن النساء في المدينة بعدها لم يقم لهن مأتم إلا ابتدأن بالبكاء على حمزة.

وقد أدرك أهل المدينة الندبة التي تعمقت في فؤاده ﷺ من مقتل حمزة، وباح بها في هذه الكلمات، إن صح ما روي عنه، قال:

«لولا أن يَشقَّ على صفيّة ما دفنته حتى يحشر من حواصل الطير، وبطون السباع».

ويجب ألا يخطر بالبال أن عمر بن

الخطاب قاسي القلب، أو أن قلبه قُدَّ من صخر، إن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بشر من لحم ودم، يشعر عند الموت بما يشعر به غيره، وقد حزن حزناً عظيماً على أخيه زيد بن الخطاب الذي استشهد في حروب اليمامة، ويقال إن رجلاً من بني عديٍّ بن كعب كان قد صحب زيداً في تلك الغزوة، ورجع إلى المدينة سالماً، فلما رآه عمر دمعت عيناه وقال:

وخلّفت زيداً ثاوياً وأتيتني

وبقي عمر يتذكر أخاه، ولم ينسه مع مرور السنين، وكان يقول:

ما هبّت الصِّبا إلا وجدت نسيم زيد».

وكان يقول إذا أصابته مصيبة:

«قد فقدت زيداً فصبرت».

وعمر بن الخطاب يحدِّد للحزن حدوداً، ويطلب من الثكالى أن يبقين داخل هذه الحدود، حتى لا تخرج إحداهن عن مقتضى الشرع إلى بؤر الإثم، وقد ساق صاحب العقد الفريد هذه القصة:

«لما توفي خالد بن الوليد، أيام عمر بن الخطاب، وكان بينهما هجرة، فامتنع النساء من البكاء عليه، فلما انتهى ذلك إلى عمر قال:

وما على نساء بني مغيرة أن يُرقن من دمعهن على أبي سليمان ما لم يكن لَغواً ولا لقلقة».

عمر يعرف جيداً أن الراحة في الدمع، وأن مُحَّ الحزن يخرج من الدمع، واختلاف الرأي

بينه وبين خالد لا يوجب أن يكتمن ما في صدورهن من حزن على صحابي غال فُقد.

ويقر حزين أن الدَّمع أراحه في موقفَ حزن على ميِّت.

قال أبو بكر بن عيَّاش: نزلت بي مصيبة أوجعتني، فذكرت قول ذي الرمة:

لعلّ انحدار الدمع يُعقب راحة
من الوجد أو يشفي شجيَّ البلابل

فخلوت، فبكيت، فسلوت.

أما الفرزدق فيؤكد أن البكاء راحة:

فقلت لها إن البكاء لراحة
به يشتفي من ظن أن لا تلاقيا

وكان عند الدفن يأتي الرثاء، يبعثه رؤية

العزيز عند أهله، المكرم بينهم، الغالي عندهم، يوضع في حفرة يُهال عليه التراب، يرونه من حال إلى حال، مثل هذا يبعث خفي الصدور، فتدور الألسنة بما تمليه عليها.

يروي حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك قال:

لما فرغنا من دفن رسول الله ﷺ أقبلت عليَّ فاطمة فقالت:

يا أنس، كيف طابت أنفسكم أن تحثو على وجه رسول الله ﷺ التراب ثم بكت، ونادت:

يا أبتاه! أجاب ربّاً دعاه، يا أبتاه! مَن ربُّه أدناه، يا أبتاه! من ربُّه ناداه، يا أبتاه! إلى جبريل ننعاه، يا أبتاه! جنَّة الفردوس مأواه.

قال: ثم سكتت، فما زادت شيئاً.

هذا ما قيل أن فاطمة رثت به أباها، ولم يغب عن ذهن فاطمة رضي الله عنها أن هذا الغالي على كل مسلم قد أنزل في حفرة، وأهيل عليه التراب، وهو من هو قبل ذلك ملء السمع والبصر، في مثل هذه اللحظات يعجز الذهن عن تصور إنزال فقيد غال إلى حفرة، يدمدم على جسمه فيها التراب، وتدار الظهور عنه، ويبقى وحيداً هناك.

وجاء في رثاء عبدالله بن مسعود ما لخَّص شعوره تجاه عمر خليفة المسلمين، وقد فات ابن مسعود أن يحضر الصلاة عليه، فوقف على قبره يبكي، ويطرح رداءه، ثم قال:

«والله لئن فاتتني الصلاة عليك لا فاتني حسن الثناء، أما والله لقد كنت سخيّاً بالحق، بخيلاً بالباطل، ترضى حين الرضى، وتسخط حين السخط، ما كنت عيّاباً ولا قدّاحاً، فجزاك الله عن الإسلام خيراً.

ورثى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خباباً فقال، وقد وقف على قبره:

«رحم الله خبّاباً، لقد أسلم راغباً، وجاهد طائعاً، وعاش زاهداً، وابتلي في جسمه فصبر، ولن يُضيِّع الله أجر من أحسن عملاً».

ولما مات داود الطائي رثاه ابن السماك، ومن بعض ما قال:

«يا داوود، ما أعجب شأنك بين أهل

زمانك! أهنت نفسك وإنما تريد إكرامها، وأتعبتها وإنما تريد راحتها، أخشنت المطعم وإنما تريد طيبه، وأخشنت الملبس وإنما تريد لينه، ثم أمتّ نفسك قبل أن تموت، وقبرتها قبل أن تقبر، وعذبتها قبل أن تُعذّب، سجنت نفسك في بيتك، ولا محدِّث لها، ولا جليس معها، ولا فراش تحتك، ولا ستر على بابك، ولا قُلَّة تبرد فيها ماءك، ولا صحنة يكون فيها غَداؤك وعشاؤك.

يا داوود ما تشتهي من الماء باردة، ولا من الطعام طيِّبه، ولا من اللباس ليِّنه، بلى، ولكن زهدت فيه لما بين يديك، فما أصغر ما بذلت، وما أحقر ما تركت في جنب ما رغبت وأمَّلت،

لم تقبل من الناس عطيَّة، ولا من الإخوان هديَّة، فلما متَّ شهرك ربك بفضلك، وألبسك رداء عملك، فلو رأيت من حضرك علمت أن ربّك قد أكرمك وشرَّفك.

ورثى علي بن أبي طالب أبا بكر الصديق «رضي الله عنهما» وهذا هو الرثاء، وهذا مدخله:

لما قُبض أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سُجّي بثوب، فارتجَّت المدينة بالبكاء عليه، ودهش القوم كيوم قبض رسول الله ﷺ وجاء علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باكياً، مسرعاً، مسترجعاً، حتى وقف بالباب وهو يقول:

«رحمك الله أبا بكر، كنت والله أوَّلَ القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدهم يقيناً،

وأعظمهم غناءً، وأحفظهم على رسول الله ﷺ وأحربهم على الإسلام، وأحناهم على أهله، وأشبههم برسول ا لله ﷺ خُلُقاً وفضلاً وهدياً وسمتاً، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله ﷺ، وعن المسلمين، خيراً. صدَّقت رسول الله ﷺ حين كذَّبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، سمّاك الله في كتابه صدِّيقاً فقال: ﴿والذي جاء بالصدق وصدَّق به﴾، يريد محمداً ويريدك.

كنت والله للإسلام حصناً، وعلى الكافرين عذاباً، لم تُفلَل حجتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك. كنت كالجبل لا تحركه العواصف، ولا تزيله القواصف.

كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً في بدنك، قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، قليلاً في الأرض، كثيراً عند المؤمنين، لم يكن لأحد عندك مطمع، ولا لأحد عندك هوادة، فالقويّ عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه، والضعيف عندك قوي حتى تأخذ الحق له، فلا حرمنا الله أجرك، ولا أضلنا بعدك».

كان الرثاء على القبر عند الدفن أو بعد الدفن، وكأن المقابر منابر للنطق بكلمات حق عن الميت، مستجلبة في نهايتها دعاءً له بالرحمة من المتكلم ومن السامعين.

واختصر عبدالملك بن مروان القول عندما وقف على قبر معاوية فقال:

«تاللهإن كنت إلا كما علمت، يُنطقك العلم، ويُسكتك الحلم.

ثم أنشأ يقول، وفي هذا عصارة قول:

وما الدهر والأيام إلا كما ترى

رزيَّة مال أو فراق حبيب»

ويبلغ الحزن مبلغه عند نائلة بنت الفرافصة الكلبية زوجة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأقدمت على وسيلة تجعلها حزينة طوال حياتها، مصممة على ألاَّ يبلى حزنها، ولهذا يقال إنها وقفت على قبر عثمان فترحمت عليه، ثم قالت:

ومالي لا أبكي وتبكي صحابتي

وقد ذهبت عنا فضول أبي عمرو

ثم انصرفت إلى منزلها، فقالت:

إني رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب، وقد خفت أن يبلى حزن عثمان في قلبي.

فدعت بفهر، فهشمت فاها وقالت:

«والله لا قعد مني رجل مقعد عثمان أبداً».

والحزن يمحو ما قد يكون علق بالقلوب من إحن نتيجة اختلاف في النظرة إلى الحياة، ويبدو أن أبا ذر الهمداني قد نقد على ابنه أمراً، لعله جاء نتيجة اختلاف نظريهما، ومع هذا رثاه أبوه أبو ذر رثاءً يليق بمثل هذا الموقف، وها هي القصة:

«وقف أبو ذرّ الهمداني على قبر ابنه ذرّ، فقال يا ذرُّ، شغلني الحزن لك عن الحزن عليك، فليت شعري ما قلتَ وما قيل لك ثم قال:

اللهم إني قد وهبت لك إساءته إليَّ فهب

لي إساءته إليك.

فلما انصرف التفت إلى قبره، فقال:

يا ذرُّ، قد انصرفنا وتركناك، ولو أقمنا ما نفعناك».

ما إلتفاتة أبي ذرّ إلا دلالة على ما في داخل قلبه من عاطفة الأبوة، وكأنه يعتذر عن تركه.

ولعل أقل كلمات قيلت في رثاء أب لابنه ما قاله محمد بن سليمان عندما وقف على قبر ابنه، فقال:

«اللهم إني أرجوك وأخافك عليه، فحقق رجائي، وآمن خوفي».

أما الأعرابية التي وقفت على قبر أبيها ترثيه فقد جاءت بقول يعتد به، لما فيه من حسن

السَّبك، وقوة المعاني، وإصابتها للهدف، دون اختزال مخل، ولا تطويل ممل:

وقفت أعرابية على قبر أبيها فقالت:

يا أبت، إن في الله ـ تبارك وتعالى ـ من فقدك عوضا، وفي رسول الله ﷺ من مصيبتك أسوة.

ثم قالت:

اللهم، نزل بك عبدك مقفراً من الزاد، ومخشوشن المهاد، غنيّاً عما في أيدي العباد، فقيراً إلى ما في يدك يا جواد، وأنت، أي رب، خير من نزل به المؤمّلون، واستغنى بفضله المقلُّون، وولج في سعة رحمته المذنبون، اللهم فليكن قِرَى عبدك منك رحمتك، ومهاده جنتك».

.. ثم انصرفت.

ومن الذين احترقت مهجهم بسبب الفقد عمر بن عبدالعزيز، فقد استودع الله ابنه عبدالملك، وقد وقف على قبره، ورثاه بكلمات محدودة، ولكن فيها من العمق ما يكفي، قال:

«رحمك الله يا بني، فقد كنت ساراً مولوداً، باراً ناشئاً، وما أحسب أني لو دعوتك أجبتني».

ولمسة برّ من رجل خيِّر، جمعت متفرقين، وقرّبت مبتعدين، وغيرت نظرة كان تبناها الناس إلى نظرة رجع إليها الناس، وهو موقف غريب، ولكنه لائق بالمؤمنين، ومن الذين لا ييأسون من روح الله:

توفي رجل كان مسرفاً على نفسه بالذنوب فتحامى الناس جنازته، فبلغ عَمر بن ذرّ خبرُه،

فأوصى إلى أهله أن خذوا في جهازه، فإذا فرغتم فآذنوني، ففعلوا، وشهده عمر بن ذرّ، وشهده الناس معه، فلما فرغ من دفنه وقف عمر بن ذرّ على قبره فقال:

«يرحمك الله أبا فلان، فلقد صحبت عمرك بالتوحيد، وعفّرت لله وجهك بالسجود، فإن قالوا مذنب، وذو خطايا، فمن منّا غير مذنب، وغير ذي خطايا».

رحمك الله يا عمر بن ذرٍّ، فلقد اتَّبعت السنَّة، وذكرت المحاسن، وركَّزت على مواطن التوحيد والتقوى في الرجل، وأسدلت ستاراً كثيفاً على الخطايا بإقرارك بأن لا أحد منزَّه عنها، ولقد قلت فصدقت، ورثيت فأحسنت،

ووعظت فأبلغت، غفر الله لك ولنا الخطايا.

ويعيد معاوية بن أبي سفيان، بكلمة قالها، ما نعرف أنه الحقيقة، وهو أن نسيان الحبيب بعد فقده ليس من السهل، ولا كل حبيب يمحو مرور الزمن ذكراه من الأذهان:

وقف معاوية على قبر أخيه عتبة، فدعا له، وترحَّم عليه، ثم التفت إلى من معه، فقال:

«لو أن الدنيا بُنيت على نسيان الأحبة ما نسيت عتبة أبداً».

وهناك من رثى نفسه قبل مماتها، ومن هؤلاء يزيد بن خذَّاق، فقال أبياتاً منها:

هل للفتى من بنات الدهر من واقي
أم هل من حِمَام الموت من راقي

قد رجّلوني وما بالشَّعر من شعث
وألبسوني ثياباً غيرَ أخلاق
وطيَّبوني، وقالوا أيُّما رجل
وأدرجوني كأني طيَّ مخراق
وأرسلوا فتية من خيرهم حسباً
ليسندوا في ضريح القبر أطباقي

(المخراق: قماش يلف ثم يضرب به، وهي لعبة عند الصغار.. والأطباق: فقار الظهر).

وأشهر من رثى نفسه مالك بن الريب، وقد لسعته حيّة، كانت في خفه، وهو يحارب في الثغور، ومطلع القصيدة:

دعاني الهوى من أهل أود وصحبتي
بذي الطبسين فالتفتُّ ورائيا

ويسير في القصيدة إلى أن يقول:

فيا صاحبي رحلي دنا الموت فاحفرا

برابية إني مقيم لياليا

وخُطَّا بأطراف الأسنّة مضجعي

وردَّا على عينيَّ فضل ردائيا

ولا تحسداني بارك اللّه فيكما

من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا

خذاني فجراني ببردي إليكما

وقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا

تفقَّدت من يبكي عليَّ فلم أجد

سوى السيف والرمح الرديني باكيا

وأدهم غربيب يجر لجامه

إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا

صور معبرة، رسمت بدقة، فهو بوحدته هناك لا لصيق لروحه إلاَّ رفقاء دربه: السيف والرمح وحصانه الأدهم داكن اللون، هذا في غربته، أما لو كان بين أهله فالباكون هم:

وبالرمل لو يعلمْنَ علمي نسوة
بكين وفدَّين الطبيب المداويا
عجوزي وأختاي اللتان أصيبتا
بموتي وبنْت لي تُهيج البواكيا

وابنته هي التي قالت عند وداعه، وهي تعرف أن داخل الحرب مفقود، إلا من وقاه الله:

تقول ابنتي لما رأت وشك رحلتي
سفارك هذا تاركي لا أباليا

ويختم هذه القصيدة المؤثِّرة بهذين البيتين:

تجمَّل أصحابي عشاءً وغادروا
أخاً ثقة في عرصة الدار ثاويا

يقولون لا تبعد، وهم يدفنونني
وأين مكان البعد إلا مكانيا

وكثيرون الذين رثوا أنفسهم، فهناك أفنون واسمه ضريم بن معشر بن ذهل بن تيم بن عمرو بن مالك التغلبي.

ومن بعض ما ورد في مرثيته لنفسه قوله:

فيا مُعرضا إنَّ الحقوق كثيرة
وإنك لا تبقي بنفسك باقيا

لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتّقي
إذا هو لم يجعل له الله واقيا

كفى حَزَنًا أن يرحل الركب غدوة
وأُنزل في أعلى إلاهة ثاويا

وممن رثوا أنفسهم قرب موتهم هدبة العذري، فقد قال لما أيقن بالموت:

ألا عللاني قبل نوح النوائح
أَوقبل اطلاع النفس بين الجوانح
وقبل غد، يا لهف نفسي على غد!
إذا راح أصحابي ولست برائح
إذا راح أصحابي بفيض دموعهم
وغودرت في لحد عليَّ صفائحي
يقولون: هل أصلحتم لأخيكم
وما الرمس في الأرض القواء بصالح

ومحمد بن بشير يرثي نفسه بأربعة أبيات

يختمها بقوله:

صار البشيري إلى ربه

يرحمنا الله وإياه

وأبو العتاهية عُرف بزهده، وبأشعاره المكررة في هذا الميدان، وأوصى قبل مماته أن تكتب أبيات الرثاء هذه على قبره:

أُذْنَ حيٍّ تسمَّعي

اسمعي ثم عي وعي

أنا رهنٌ بمضجعي

فاحذَري مثل مصرعي

عشت تسعين حجّة

ثمّ وافيت مضجعي

ليس زاداً سوى التقى

فخذي منه أو دعي

وهذه الأبيات تذكرني بقصة ذكرها لي الأخ القريب إلى النفس معالي وزير التجارة السابق محمد العوضي، قال:

إن كنعان الخطيب أديب شاعر، ويتقن اللغة التركية، وأنه مر يوماً بمقبرة في تركيا، فرأى على قائم أحد القبور مكتوباً باللغة التركية بيتين، نقلهما إلى اللغة العربية:

لا تقل يوما أنا
هكذا قلت أنا
من يقل يوما أنا
صائر مثلي هنا

ما أصدقها من بيتين، وما أحسن الترجمة، وما أكثر توفيق المترجم رحمه الله ورحم قائل البيتين.

ويغريني جمال الأبيات التي يوردها صاحب العقد الفريد، فكلما قلت أختصر، وأكتفي بنماذج مدت هذه المواقف المحزنة، والأبيات المعبرة، أعناقها، وكأنها تحتج على نية تركها، وما درت أن النفس معها، وليعذرني القارئ، ويعذرها، إذا نحن أثقلنا عليه بوضعها أمامه، فما أراد قراءته منها فليقرأه، وما أراد أن يتجنبه منها فله الحق في ذلك، خاصة أنها في باب الحزن، وليست في باب من أبواب الفرح والمرح.

أوصى أحد الشعراء أن تكتب هذه الأبيات على قبره:

أصبح القبر مضجعي
ومحلّي وموضعي

صرعتني الحتوف في التُّـ
ـرب يا ذُلَّ مصرعي
أين إخواني الذيـ
ـن إليهم تطلّعي
متّ وحدي فلم يمت
واحد منهم مُعي

وهناك الأبيات المشهورة المنسوبة لأبي نواس، وقيل إنها وجدت مكتوبة في ورقة تحت فراش موته؛ وهو من اشتهر بمآخذ كانت تزيد مع مرور الزمن حتى بعد وفاته، فاختلط ما قد يكون حقيقة بما هو مركب، فأبو نواس مثل جحا صار مطيّة للنحل، ومشجباً تعلق عليه مفتريات الكذب عن الفسق والفجور، والله أعلم بالظواهر والبواطن، وهو الغفور الرحيم:

يا ربّ إن عظمت ذنوبي كثرة
فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن
فبمن يلوذ ويستجير المجرم
أدعوك ربِّ كما أمرت تضرعا
فإذا رددتَ يدي فمن ذا يرحم
ما لي إليك وسيلة إلا الرجا
وجميل عفوك ثم أني مسلم

وكما نرى الذين رثوا أنفسهم نهجوا نهجاً يختلف عن نهج من يرثي حميماً سبق إليه الموت، وهذه من الأبيات السابقة للموت، وقائلها هو صاحبها:

قال الخُشني: أخبرنا بعض أصحابنا ممن كان يغشى مجلس الرِّياشي، قال: رأيت على

قبر أبي هاشم الإيادي بواسط:

الموت أخرجني من دار مملكتي
والموت أضرعني من بعد تشريفي
للّه عبد رأى قبري فأعبره
وخاف من دهره ريب التصاريف

ويغلب على هذه الأبيات التي تكتب على شواهد القبور ما يتوقع المتوفَّى من برود حزن أهله عليه، ونسيانهم له، واندماجهم في حياتهم دون الالتفات له، وفيها نغمة العتاب.

وقد وجدت هذه الأبيات على بعض القبور:

ملّ الأحبة زورتي فجفيت
وسكنت في دار البلى فنُسيت
الحي يكذب لا صديق لميت
لو كان يصدق مات حين يموت

يا مؤنساً سكن الثرى وبقيتُ
لو كنت أصدق إذ بليتَ بليتُ
أو كان يَعمى للبكاء مفجّع
من طول ما أبكي عليك عُميت

ولعل البيتين الأولين كتبا تعليقاً على البيتين السابقين، وتأكيداً لهما، وكاتبهما غير صاحب البيتين الأولين،

ثم يأتي شاعر فيأتي ما كتب على قبره قولاً صادقاً عن الحياة، وعن الناس فيها، وصلتهم بالأموات فيقول:

وعما قليل لن ترى باكياً لنا
سيضحك من يبكي ويُعرض عن ذكري
ترى صاحبي يبكي قليلاً لفرقتي
ويضحك من طول الليالي على قبري

ويُحدِث إخواناً وينسى مودتي
وتشغله الأحباب عني وعن ذكري

هؤلاء هم الأصحاب، وليسوا الأحباب، فما نَسِيَتْ نائلة بنت الفرافصة عثمان، وعملت على بقَاء حزنها عليه، جاهدة في هذا.

ولابن عبد ربه عدة قصائد طويلة رثى فيها ولده.

ومن أشهر قصائد الرثاء قصيدة أبي ذؤيب الهذلي يرثي فيها أولاده السبعة، وقد ماتوا كلهم إلا واحداً:

أمن المنون وريبها نتوجع
والدهر ليس بمعتب من يجزع
قالت أميمة ما لجسمك ناحلا
منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع

أم ما لجسمك لا يلائم مضجعا
إلا أقض عليك ذاك المضجع
فأجبتها أن ما لجسمي إنه
أودى بَنيّ من البلاد فودعوا
أودى بنيّ وأعقبوني حسرة
بعد الرُّقاد وعبرةٌ ما تقلع
سبقوا هواي وأعنقوا لهواهم
فتُخُرّموا ولكل جنب مصرع
فبقيت بعدهم بعيش ناصب
وإخال أنيِ لاحق مستتبع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم
وإذا المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع

فالعين بعدهمُ كأن حداقها
سُملت بشوكٍ فهي عور تدمع
حتى كأني للحوادث مَروةٌ
بصفا المشرَّق(*) كل يوم تُقرع
وتجلدي للشامتين أريهم
أني لريب الدهر لا أتضعضعُ

وقال في الطفل الذي بقي له:

والنفس راغبة إذا رغّبتها
وإذا ترد إلى قليل تقنع

وهذه القصيدة من أبلغ قصائد الرثاء، وبعض أبياتها أصبح مثلاً على ألسنة الناس، أو بعض أشطر الأبيات مثل:

(*) المشرَّق: سوق بالطائف.

إذا المنيـة أنشـبت أظفـارها

ألفـيت كـل تميـمـة لا تنفـع

فالصورة التي رسمها مخيفة، فالميتة كأنها وحش له أظفار كأنها الكلاليب، انقضّت على جسم غض، والصياغة متقنة، والبيت يهزّ السامع أو القارئ.

والبيت الثاني على ألسنة الناس دائماً في مثل هذا الموقف:

وتجلدي للشامتين أريهم

أني لريب الدهر لا أتضعضعُ

بيت متقن، وغريب أن يشمت قوم، مهما كانوا أعداءً برجل فقد سبعة أولاد، متتابعي الميتة، ولكن الشر قد يتعدى حدود ما هو

معقول، والخير كذلك، وكما يقول المثل العامي «لا فرق بين الردى والجود»، والخيِّر من وفقه الله، والشرير من غلبه الشيطان.

وهذا أعرابي قيل إنه (القرشي) يرثي بنيه، وقد أغراني على ذكرها، رغم طولها، ما فيها من صور صادقة، ومعان دقيقة ومعبرة، وجرس ممتع:

أسكّان بطن الأرض لو يُقبل الفدا
فدينا وأعطينا بكم ساكني الظهر
فيا ليت من فيها عليها، وليت من
عليها ثوى فيها مقيما إلى الحشر
وقاسمني دهري بَنيَّ بشطره
فلما تقصَّى شطره مال في شطري

فصاروا ديوناً للمنايا ولم يكن
عليهم لها دين قضوه على عسر
كأنهم لم يعرف الموت غيرهم
فثكل على ثكل وقبر على قبر
وقد كنت حي الخوف قبل وفاتهم
فلما توفّوا مات خوفي من الدهر
فللّه ما أعطى وللّه ما حوى
وليس لأيام الرزيّة كالصبر

وفي قوله:

وقد كنت حي الخوف قبل وفاتهم
فلما توفّوا مات خوفي من الدهر

صورة صادقة، وهذا بيت معبّر، يصف واقعاً، لا يمكن التعبير عنه إلا بهذا البيت

وأمثاله، وقد رثت أعرابية ابنها بما يشبه ذلك:

قيل لأعرابية مات ابنها: ما أحسنَ عزاءك، قالت:

إن فقدي إياه آمنني كل فقد سواه، وإن مصيبتي به هوّنت عليّ المصائب بعده، ثم أنشأت تقول:

من شاء بعدك فليمت
فعليك كنت أحاذر
كنت السواد لناظري
فعمي عليك الناظر
ليت المنازل والديا
ر حفائرٌ ومقابر
إني وغيري لا محا
لة حيث صرتَ لصائر

ولابتداع هذه الفكرة في الرثاء تلقفها الشعراء، وأدرجوها في رثائهم، وهذا الحسن ابن هانئ يقول في رثاء الأمين، ويأتي بالفكرة نفسها:

طوى الموت ما بيني وبين محمد
وليس لما تطوي المنيّة ناشر
وكنت عليه أحذر الموت وحده
فلم يبق لي شيء عليه أحاذر
لئن عمرت دور بمن لا أحبّه
لقد عمرت ممن أحب المقابر

ويلمس هذا المعنى ابن الاهتم في رثاء ابن له لمساً ليناً فيقول:

دعوتك يا بنيّ فلم تجبني
فردت دعوتي يأساً عليّا

بموتك ماتت اللذات منّي
وكانت حيّة مادمتَ حيّا
فيا أسفا عليك وطول شوقي
إليك لو أن ذلك رد شيّا

وأبو العتاهية، وقد عرف عنه قوله الشعر في الزهد، يرثي ابنه، ويغرف من البحر الذي يعرف السباحة فيه جيداً، فيأتي بالموعظة في أعلا قممها:

كفى حَزَنَاً بدفنك ثم إني
نفضت تراب قبرك من يديّا
وكانت في حياتك لي عظات
فأنت اليوم أوعظ منك حيّا

وهذا أعرابي يجد حجة قوية في عدم

نسيان ابنه، فيقول وهو يرثيه، وقد قيل له: لو صبرت لكان أعظم لثوابك:

بأبي وأمي من عبأت حنوطه
بيدي وفارقني بماء شبابه
كيف السلو وكيف أنسى ذكره
وإذا دعيت فإنما أدعى به

كل شيء في البيت وفي غيره يذكِّر الفاقدَ فقيدَه: باب البيت، درج البيت، غرف البيت، رجع صدى الأصوات، سكون البيت في هدأة الليل، ضجيج الناس في النهار، اسم الفقيد ينادى به غيره، فما بالك بأبيه عندما يقال له يا أبا فلان، كل ما خلا الذهن استعاد شيئاً يذكِّره بالحبيب الراحل.

خرج عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوماً إلى بقيع الغردق، فإذا أعربي بين يديه، فقال:

يا أعرابي، ما أدخلك دار الحق؟

قال: وديعة لي هاهنا منذ ثلاث سنين.

قال: وما وديعتك؟

قال: ابن لي حين ترعرع فقدته، فأنا أندبه.

قال عمر: أَسمعني ما قلت فيه، فقال:

يا غائباً ما يؤوب من سفره
عاجله موته على صغره
يا قرة العين كنت لي سكناً
في طول ليلي، نعم، وفي قصَره
شربتَ كأساً أبوك شاربها
لابد يوماً له على كبره

أشـربُـهـا والأنـام كـلـهـمُ
من كان في بدوه وفي حضره
فـالحـمـد للّـه لا شـريـك لـه
الموت فـي حكـمـه وفي قـدره
قـد قـسم المـوت في الأنـام فـمـا
يـقـدر خـلق يـزيـد في عـمـره

قال عـمر: صدقـت يا أعرابي، غـير أن الله خير لك منه، ونحن نقول إن الله خير له منك.

والصـدمـة بمـوت الحـبيب تـوجب تـكذيـب الخبر، وتـعلق الفاقد بـأمل سراب، ويعتـقد في الخـبر وهمـاً، وأن الحبيـب الغالـي باق، وتدور الفـكرة فـي الذهـن في المجـال الـذي يزيـد في الأمـل، ويستـمـر الأمـر بهـذه الـصـورة، وقـد

يطول أمدها.

يقول الأصمعي عن رجل من الأعراب أنهم كانوا عشرة إخوة، وبينهم أخ يقال له حسن، فنعي إلى والده فبقي سنتين يبكي عليه حتى كف بصره، وقال فيه:

أفلحتُ إن كان لم يمت حسن
وكُفّ عني البكاء والحزَن
بل أكذَبَ اللّه من نعى حسنا
ليس لتكذيب قوله ثمن
أجول في الدار لا أراك وفـ
ـي الدار أناسٌ جوارهم غبَن
بدّلتهم منك ليت أنهم
كانوا وبيني وبينهم مدن

إلى أن يقول:

فإن تعش فالمنى حياتك والـ
ـخلد وأنت الحديث والوسن
إن تحيا نحيا بخير عيش وإن
تمض فتلك السبيل والسنن
بريدك الحمد والسلام معاً
فكل حيّ بالموت مرتهن
يا ويح نفسي أن كنت في جدث
دونك فيه التراب والكفن

وفي هذه الأبيات يلمح بطرف عينه الواقع، ولكنه سرعان ما يجري خلف السراب والمنى، فيقول:

عليَّ للّه، إن لقيتك من
قبل الممات، الصيام والبدن

أسوقها حافياً مجللة
أدماً هجانا قد كظها السِّمَن
فلا نبالي إذا بقيت لنا
من مات أو من أودَى به الزمن

ثم يغلبه الواقع فيقول:

كنتَ خليلي وكنتَ خالصتي
لكل حي من أهله سكن
لا خير لي في الحياة بعدك إذْ
أصبحت تحت التراب يا حسن

وهكذا تتوالى الدموع والعبرات، فمن أم ثكلى دعت الأسى والصبر فأجابها الأسى ولم يجبها الصبر، فتعد ببقاء الحزن إلى أبد الدهر، وتقول إن الجفون ضنّت بدمعها، حتى تقرحت، وتقول إنها بدفن ابنها دفنت بعض نفسها.

وهذا ابن عبد ربه انشطرت كبده فراح نصفها يرقد تحت الثرى، ولما طلبوا منه الصبر أنكر أن له قلباً أو أن له صبراً، ويقول إن كل فكر يجدد لابنه عنده ذكره، ويتصور أن جميع الأرض قبر لابنه، ويقول إن ابنه فرخ طار بمهجته ليجعل قبره وكراً له.

وفجائع الدهر تؤدي أحياناً إلى الموت من الحزن، وقوة العاطفة عند فقد الغالي، وتجعل هذا مقبولاً، والقصة الآتية واحدة من تلك الفجائع:

كانت امرأة من هذيل لها عشرة إخوة وعشرة أعمام، فهلكوا جميعاً في الطاعون، وكانت بكراً لم تتزوج، فخطبها ابن عمّ لها،

فتزوجها، فلم تلبث أن اشتملت على غلام، فولدته، فنبت نباتاً كأنما يمد بناصيته، وبلغ، فزوجته، وأخذت في جهازه، حتى إذا لم يبق إلا البناء بأهله أتاه أجله، فلم تشقّ لها جيباً، ولم تدمع لها عين، فلما فرغوا من جهازه دُعيت لتوديعه، فأكبت عليه ساعة، ثم رفعت رأسها ونظرت إليه وقالت:

ألا تلك المسرّة لا تدوم
ولا يبقى على الدهر النعيم
ولا يبقى على الحدثان غفْر (*)
بشاهقة له أم رؤوم

ثم أكبت عليه أخرى، فلم تقطع نحيبها حتى فاضت روحها، فدفنا جميعاً.

(*) الغفر : ولد الأروى ، من فصيلة الوعول.

تصبرت في أول الأمر، وبدلاً من أن تبين حزنها بما يتماشى مع عظم المصيبة كتمته داخلها، فانفجر نحيبا، وانتهى بالموت، رحمها الله.

وهذا عبدالله بن ثعلبة تتشكل صور الحزن في نفسه فيرثي ابنه بما يصور حبال الحزن الممتدة إلى مهجته، ويأتي ببديع من القول هو فوح المصيبة، يقول:

أأخضب رأسي أم أُطيِّب مفرقي
ورأسك مرموس وأنت سليب
نسيبك من أمسى يناجيك طرفه
وليس لمن تحت التراب نسيب
غريب وأطراف البيوت تُكنُّه
ألا كل من تحت التراب غريب

ويبدع العتبي (محمد بن عبدالله) في رثاء ابن له، وينقض قاعدة مشى على قبولها الناس فيقول:

أضحت بخدِّي للدموع رسوم
أسفاً عليك وفي الفؤاد كلوم
والصبر يحمد في المواطن كلها
إلا عليك فإنه مذموم

ويتمنى أبو شأس أنه الميت لا ابنه، وهي أمنية ترد كثيراً عند فقد غال، يقول أبو شأس:

وربّيت شأساً لريب الزمان
فللّه تربيتي والنّصَب
فليتك يا شأس فيمن بقي
وكنت مكانك فيمن ذهب

ويلوم لائم متّممَ بن نويره على بكائه على

أخيه مالك لما رأى قبوراً في بلاد بعيدة، فيقول أبياتاً ملأى بالحزن، ثم يختمها ببيت أصبح مضرباً للمثل:

فقلت له إنَّ الأسى يبعث الأسى
فدعني فهذي كلها قبر مالك

أما قصيدته العينية فمشهورة معروفة، فيها من المعاني البديعة ما جعلها من عيون المراثي، وفيها من الصور ما هو فريد، ومطلعها:

لعمري وما دهري بتأبين هالك
ولا جَزَع مما ألم فأوجعا

وهناك من سماها أم المراثي.

وامتدح النقاد مطلع مرثية أوس بن حَجَر:

أيتها النفس أجملي جزعا
إن الذي تحذرين قد وقعا

ومن المراثي المشهورة المؤثرة؛ مرثية قُتَيلة بنت الحارث، في أخيها النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف، وقد أمر الرسول ﷺ بقتله صبراً:

يا راكبا إن الأثيل مظنّة
من صبح خامسة وأنت موفَّق
أبلغ بها ميتاً بأن تحية
ما إن تزال بها النجائب تخفق
مني إليك وعَبرة مسفوحة
جادت بواكفها وأخرى تخنق
هل يسمعنّي النضر إن ناديته
أم كيف يسمع ميِّت لا ينطق
أمحمد يا خير ضنء كريمة
في قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرّك لو مننت وربما
منَّ الفتي وهو المغيظ المحنق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة
وأحقُّهم إن كان عتق يُعتق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه
للّه أرحام هناك تَشقّق
صبراً يُقاد إلى المنيَّة متعبا
رسف المقيّد وهو عان موثق

قال ابن هشام: قال النبي ﷺ لما بلغه هذا الشعر: لو بلغني قبل قتله ما قتلته.

لم تترك قتيلة مهمزاً ليناً في العاطفة إلا همزته، وقد جاءت بقول بليغ، ورثاء مؤثر، وعتب مغلّف، وأدب واف.

والخنساء، أشهر من نار على علم، في رثاء أخيها صخر، فلها فيه عدة مراثي كلها تؤكد عميق حزنها، وغيرها كثيرات، ومنهن أخت الوليد بن طريف، وأسماء بنت أبي بكر (ذات النطاقين) رضي الله عنها ترثي زوجها الزبير بن العوام، ولبانة بنت علي بن ريطة ترثي محمد بن هارون الرشيد، وأعرابيات ما أكثرهن.

ومن أراد المزيد ففي العقد الفريد لابن عبدربه قصائد مختلفة، وأبيات متعددة، فيها من الأفكار ما هو مكرر، ومنها ما هو مبتدع، ونكتفي بهذا مدخلاً لما أردنا تأليف هذه الصفحات من أجله.

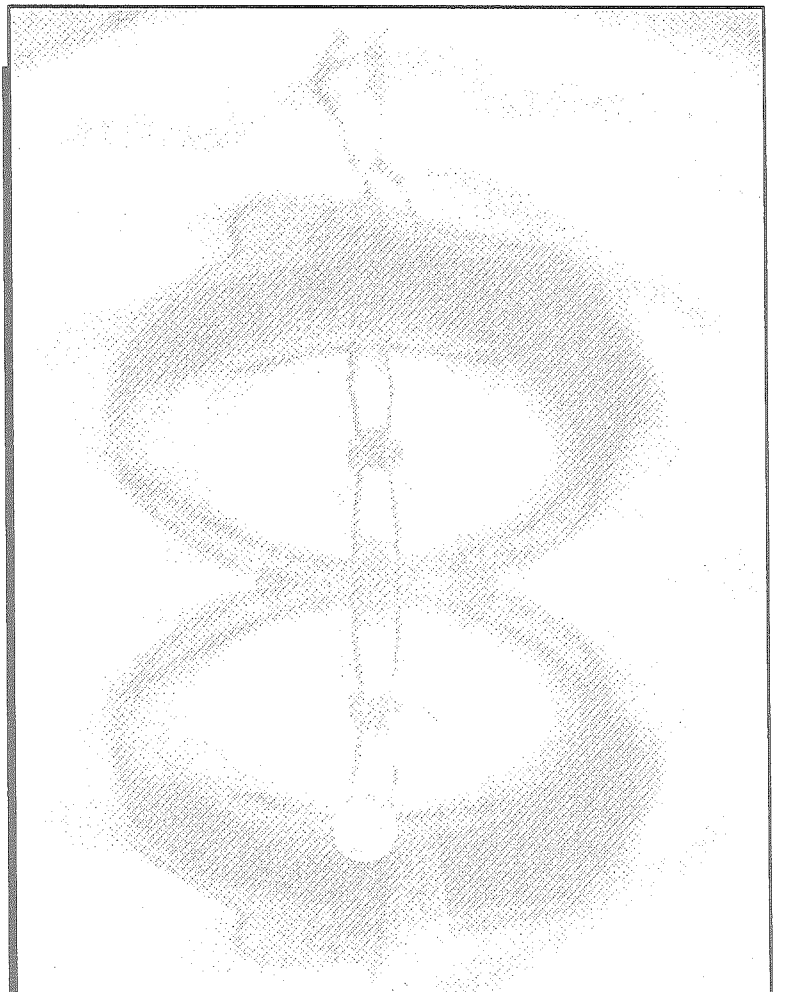

(١)

فقد صديق

فقد صديق (*)

(١)

خبر وفاة الصديق يُذهل، ومفاجأته تشل التفكير، وتُلجم اللسان، ويبقى المرء بين مصدق ومكذب، وينسى أن الموت حق، وأنه مصير كل إنسان، وموت أخ وصديق مثل عبدالمجيد شبكشي يعيد إلى الذهن أننا فقدنا تلك الابتسامة، وذاك الخُلُق النبيل، وسوف يعيد إلى الذهن ما نعرفه عنه من أنه من أعمدة الفكر في فترة منيرة من سيرنا وتقدمنا، وأنه شارك مشاركة فعالة في صحافة بلادنا في فترة مهمة

(*) نُشر الرثاء في جريدة عكاظ في منتصف ربيع الثاني ١٤١١هـ.

من خطوها، وأنه كان له مع عدد من زملائه جهود مقدرة في بلورتها وإعطائها اللون الذي استقرّت عليه، فأصبح للصحافة السعودية شخصيتها، ولها مظهرها الخاص بها، ومخبرها المتميز، فقد تركزت فيها العفّة والرزانة والصدق وحسن التحرك.

وإننا إذ نودع حبيبنا عبدالمجيد شبكشي فإننا نودعه والقلب حزين والدمع غزير، وندعو الله أن يفسح له في جنته، وأن يحسن العزاء لذويه وأصدقائه، وإنا لله وإن إليه راجعون.

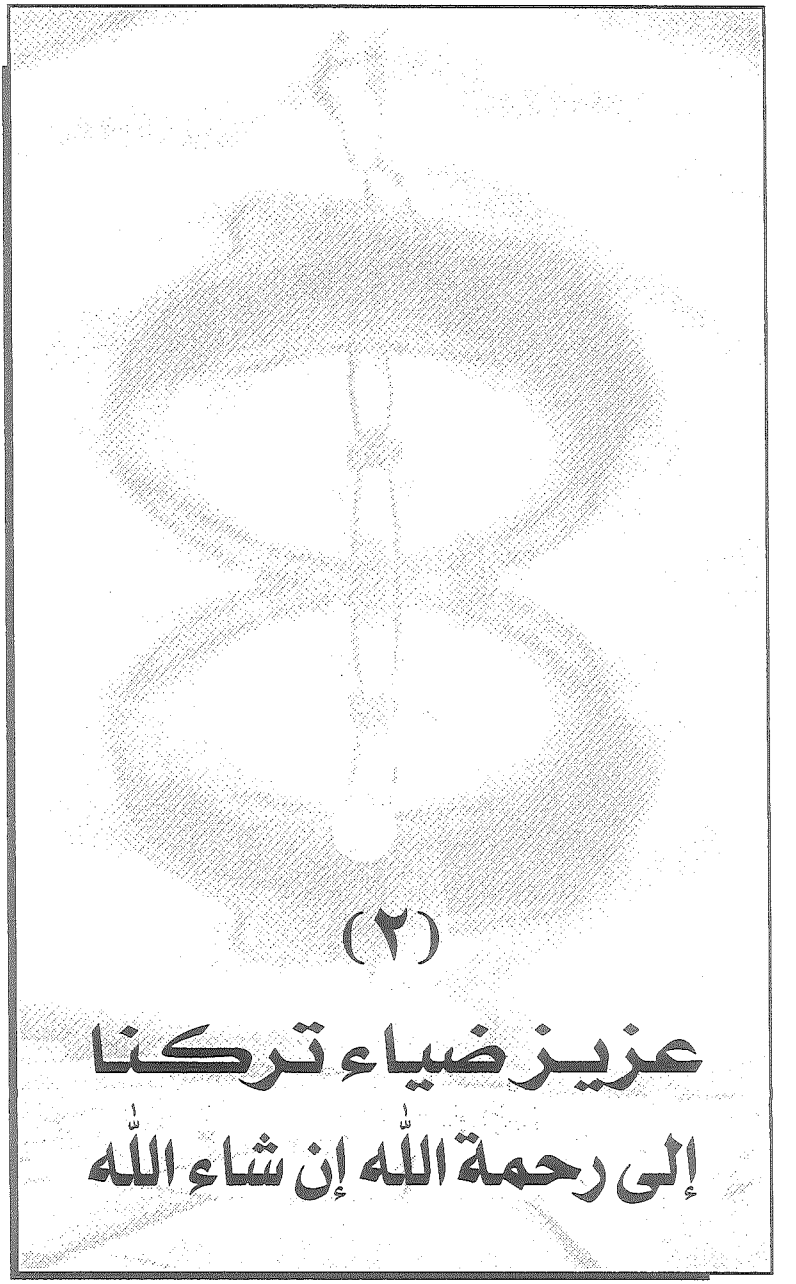

(٢)

عزيز ضياء تركنا
إلى رحمة الله إن شاء الله

عزيز ضياء تركنا
إلى رحمة الله إن شاء الله (*)

(٢)

عزيز فقدناه، وغال ذهب وتركنا، تركنا وترك لنا الذكرى الجميلة، والصدى الحسن، أدْمع العين بذهابه، وأدمى القلب بغيابه، نلمس اليوم أثره بيننا، فنشعر بالفخر به، وبالتقدير له.

الأديب شخص مشاع، فهو ليس لأسرته فقط، وليس وقفاً على أصدقائه، ولكن أهله أكبر دائرة من ذلك، ومحبيه أكثر من هذا؛

(*) نُشرت في عكاظ، الإثنين ٨/ ٨/ ١٤١٨هـ الموافق ٨/ ١٢/ ١٩٩٧م، العدد (١١٤٣٦) السنة (٣٩).

القراء أهله، ومن تأثر بفكره قريبُه، وقرابة العقل والفكر، أقوى من قرابة الصلة والنسب، والمشاركة في الفكر خير مشارك، وأنبل صلة؛ حبلها لا ينقطع، وضياؤها لا يخبو؛ لأنه يقوم على أساس قوي، وليس أقوى من الفكر أساساً، ولا أشرف منه مظهراً ومخبراً؛ تشيب الصلات، وتبهت العلاقات، وتبقى قرابة الفكر فتية تتجدد مع الأيام، ما بقي أثرها حيا، وتعمق جذورها مع السنين، مادام لها مريدون، وتنتقل من جيل إلى جيل، ولا يعرف إلى أي مدى تصل.

كم للجاحظ من تلاميذ، وكم لهؤلاء من مريدين، آلاف وآلاف جاؤا يتسللون على مر القرون التي تلت قرنه، وهكذا الأمر مع الأدباء

والمفكرين، الذين يحفرون في صفحة الزمن خطوطاً باهرة، ورسوماً زاهية.

عزيز ضياء أديب مرموق، يمثل جيلاً بأكمله من الأدباء، وهو جيل التأسيس في هذا الفن؛ وعندما تهوي هذه الدوحة لا يُفقد إلا ورقها، أما ثمرها فهو باق يحمل اسم صاحبها المكتوب بأحرف مضيئة.

عزيز ضياء وضع، مع آخرين من جيله، أسس الحركة الأدبية في بلادنا، كان جريئاً في آرائه، وكانت تلك الآراء، في تلك الأيام، مفاجئة، ولكن مع الوقت، وكثرة الحجج والإقناع، أصبحت من الأسس المسلم بها.

فكره كان واضحاً فيما يعتقده، وكان يرمي

إلى مصلحة بلاده في حدود ما يؤمن بأن الإمكانات تسمح به، وقد ربّى، فكراً، جيلاً يحمل اليوم مشعل الفكر الأدبي والاجتماعي، وهو مشعل يمثل بلادنا، معتمداً على الأسس التاريخية لهذا الفن، وما مر بها من مراحل، وما تأثر بها من ظروف، وما لوّنها من أحوال، مع اعتبار لرجال كل مرحلة.

لعزيز ضياء أسلوبه المميز، الذي تبلور مع الوقت، فأصبح معروفاً به، ووقفاً عليه، يمتاز بالسهولة والسلاسة، مع قصد للمعنى، دون حشو أو زيادة، وقد كان لكتابة مذكراته أجمل الوقع بين عارفيه، إذ كشفت عن خلفية لابد من معرفتها لتقويم الأديب وعمله، فأراح بهذا

الباحثين، وسهل الأمر على الدارسين.

سوف يترك عزيز ضياء فراغاً لا يسد، ولكنه قبل رحيله وفّى حقه كاملاً تجاه ما يتوقع أن يكون عليه دور الأديب الرائد؛ حمل مع زملاء له مسؤولية وضع أسس أدبية، كان لابد منها في بدء نهضتنا الفكرية، حتى أوصلوا الأمانة إلى أيدي جيل مؤهل بأحدث الوسائل اللازمة للأدب والفكر؛ وكثير ممن يحملون أعلى الدرجات اليوم يدخل في تكوينهم الفكري فكر هؤلاء الرواد.

وكان حظ هؤلاء الرواد، ومعهم عزيز ضياء كبيراً في التأثير، وإيصال الفكر، لأنهم جاؤوا في وقت كان الناس فيه متعطشين إلى

ورود حوضهم، واختيار بضاعتهم المزجاة، فليس في هذا الوقت ملهيات عن القراءة، والتملّى بعصارة الأفكار، فلا صحف متدنية، ولا مجلات خليعة، ولا إذاعات طاغية. كان القارئ في تلك الأيام ينتظر المقالة أسبوعاً بفارغ الصبر، يقرؤها ليتابع أمراً أخذ الكاتب على عاتقه استقصاءه.

رحم الله عزيز ضياء، رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وألهم أهله ومحبيه الصبر والسلوى؛ إنه جواد كريم.

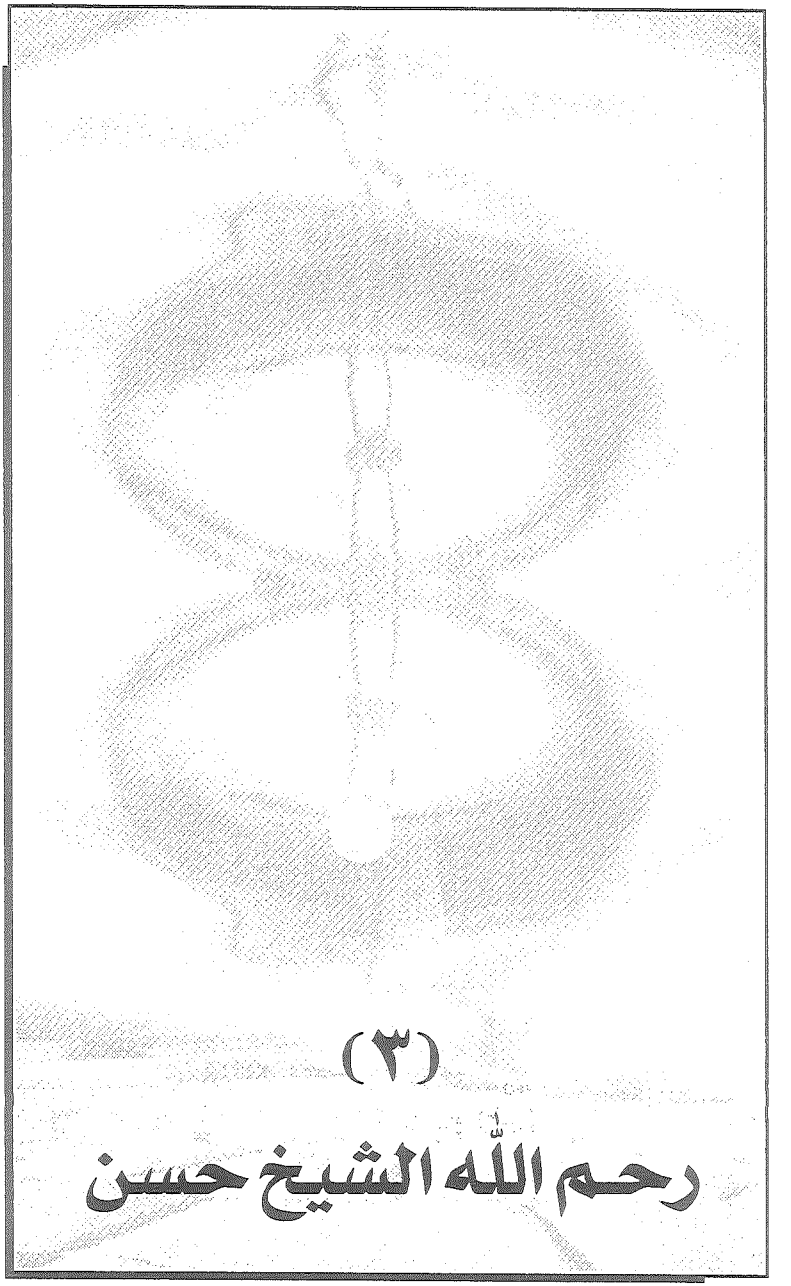

(٣)

رحم الله الشيخ حسن

رحم الله الشيخ حسن (*)

(٣)

معالي الشيخ حسن بن عبدالله بن حسن آل الشيخ رحمه الله كان رئيساً لي وصديقاً، أعرفه من بعيد عندما كان طالباً في المرحلة الابتدائية، كان هو في أولها، وأنا في آخرها، واجتمعنا في مدرسة واحدة في الطائف في عام ١٣٦٠هـ، ولم أتعرف عليه في تلك الفترة، وأكملت دراستي الثانوية وسافرت إلى مصر وأكملت دراستي الجامعية، ثم سافرت إلى لندن، وعدت عند وفاة والدي رحمه الله عام ١٣٧٨هـ؛ وعلمت

(*) نُشرت في صحيفة عكاظ في حدود شهر شعبان ١٤١٩هـ.

بوفاة الشيخ عبدالله بن حسن رحمه الله فذهبت لتعزية الشيخ حسن في مكة، وهذه أول مرة أتعرف عليه فيها.

وجاءت الصلة الوثيقة عندما أصبح وزيراً للمعارف وكنت إذ ذاك وكيلاً لجامعة الملك سعود، والجامعة كانت حينئذ تتبع وزارة المعارف، فانتظمت الصلة بيني وبينه بحكم العمل، وعرفته من خلال هذه الصلة معرفة جيدة، تأخذ مستقاها من قربي هذا منه.

ذكريات العمل مع الشيخ حسن رحمه الله تتمثل في حسن استجابته لما تحتاجه الجامعة مما دخل في اختصاص معاليه، وكان عضداً لنا في وقت اشتداد الأزمات مثل تعسر التعاقد

مع بعض الدول، ومساعدته لنا في البحث عن روافد أخرى، لتفهمه رَحِمَهُ اللَّهُ بأهمية الجامعة، وما تحتاجه من استثناءات كانت لازمة في أول تكوينها.

عرف الشيخ حسن رَحِمَهُ اللَّهُ بدماثة الخُلُق، وحسن المقابلة، وحب الخير، والإستجابة للطلبات التي تختص بالتعليم، وتذليل الصعاب التي تقف حائلاً دون الإستجابة، كان رَحِمَهُ اللَّهُ يغلب عليه الحياء، ويجد صعوبة في أن يرد صاحب طلب، ولهذا احتل منزلة عميقة في قلوب من عرفه أو اتصل به.

كان رَحِمَهُ اللَّهُ أديباً متميزاً في أسلوبه، وفي حسن التعبير، وجمال العبارة، ودقة الكلمة،

لم يكن فيما يكتب حشو، وكان يحب الكتابة، وحسن التعليق على ما يقرأ، وهو يقرأ كثيراً، وكثيراً ما يطلب مشاركة الآخرين في الرأي عما يقرأ ويستحق التداول، خاصة فيما يستحسن، وكان واسع الاطلاع مما يدل على حب للقراءة في الأمور المختلفة.

وكان متضلعاً، ولا عجب فهو حفيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب، في علوم الدين، وله مشاركة في الرأي في بعض الأمور التي تستجد في هذا العصر، والآراء التي يبديها تدل على عمق في العلم، وسعة في الإدراك، وتوفيق في الفهم.

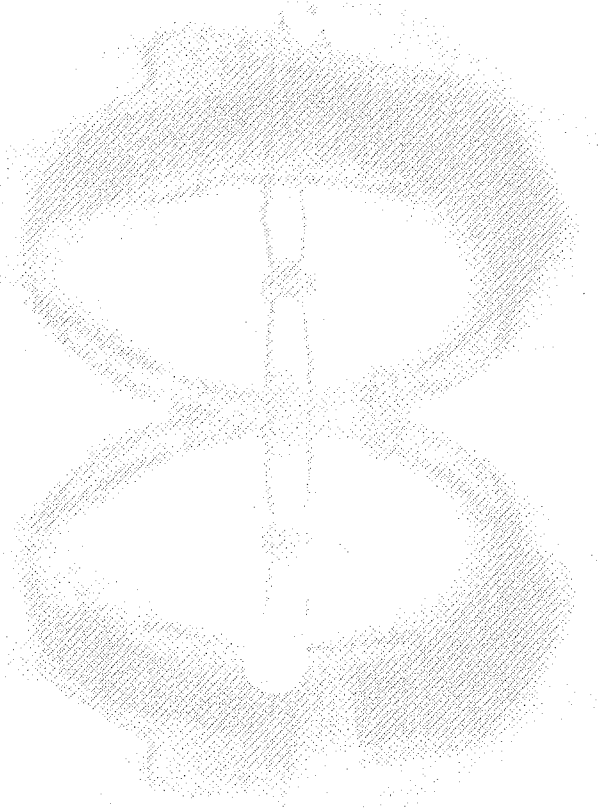

(٤)

نجم أفل وحبيب ترك

نجم أفل وحبيب ترك(*)

(٤)

أجل نجم علم، وخلق، نجم علم مضيء، براق، ونجم خلق فاضل، ولم يبق لنا بعده إلا ذكراه العطرة، وصورته الباسمة البهجة، ونتجمل بعده بالصبر، والإيمان بأن الطريق الذي سلكه لابد له، ولكل حي، من سلوكه، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

رحم الله الشيخ صالح بن غصون، رحمة الأبرار، ورضي عنه رضاه عن الأخيار، وأسكنه فسيح جناته، وأعلى فيها عنده درجاته، وألهم

(*) نُشرت في صحيفة الجزيرة في ٢١/ ١٢/ ١٤١٩هـ الموافق ٧/ ٤/ ١٩٩٩م، العدد (٩٦٨٧).

أهله وطلابه، ومحبيه أجمعين الصبر والاحتساب، إنه المولى المجيب.

لقد كان الشيخ صالح رحمه الله ضوء بهجة ساطعاً في المجتمع، يُهتدى بسيره، وما أجمل سيره، ويقتدى بنهجه، ونعم النهج، ويستفاد من علمه، وما أغزره من علم.

ترك ثروة لآلئ وجواهر لا تقدر بثمن، أبناءاً بررةً، رباهم أحسن تربية، وطلاباً نابهين، علمهم فأحسن تعليمهم، كان مثال الأب الحنون لمن هو أصغر منه سناً، والأخ العطوف لمن هو في سنه.

عُرف قاضياً عدلاً، لا يكتفي بإصدار الأحكام جافة، ولكنها تأتي منه متشحة برداء الإصلاح،

وبقدر ما يفرح بها من جاءت في صالحه، لا يأنف منها من جاءت عليه، لعلمه بعدل مصدرها، وتوخّيه الحق، وقدرته بعون الله على الوصول إليه، ويعلم المحكوم عليه بأنه في إحقاق الحق حماه من نفسه، ودرأ عنه إثماً، وساعده على التطلع إلى الأجر والثواب.

يخرج الشيخ صالح رحمه الله من منصب فيودعه محيطه بالتجلّة والتقدير والإكرام، ويستقبله منصب آخر بيدين مفتوحتين، تسبقه في ذلك سمعة أصفى من البلّور، وأزكى من عبق الزهور.

لقد كان رحمه الله يمثل جيلاً نذر نفسه لخدمة الناس، والسعي في نفعهم، وإصلاح ذات

البين بينهم، أعطاه الله حسن المنطق، وحسن التصرّف، وحسن المقابلة، مع نية صافية سليمة، ونفس كريمة رضية.

إن الشيخ صالح لم يمت، فقد أودع ما عنده من وافر العلم أذهان طلابه، وملأ صدورهم بدرر وجواهر منه، وسنَّ لهم السَّنَنْ الحسن، واختط لهم النهج المستقيم، فأصبحوا صورة صادقة لجمال خطوه، وبهاء فعله، وسعة صدره، وقدرته على التحمل، في مناصب هي محك عقول الرجال وأعصابهم، وتصرفهم، ومجال اختيار الأفذاذ وتميزهم.

كان التواضع له سمة، وحسن الخلق له سجية، فكسب حب من عرفه، واحترام من

قابله، ومن أحبه، فَخَرَ بحبه له وباهَى.

كان من الرعيل الأول الذي حمل العبء الثقيل عندما كانت الكفاءات محدودة، وقد فتح طريقاً حميداً فيما تبوأ من مناصب؛ فأصبح محل الثقة، وهو أهل لذلك، فقد أثبت كفاية وسداداً.

كان رحمه الله ينسى نفسه عندما يسعى لمصلحة الآخرين، وكان يسعى لسبل الخير لغيره، ولو على حساب حقوقه وصحته.

رحمك الله يا شيخ صالح، ففقدك كبير، لأنك كبير في الأنفس وفي القلوب، كبير في نيتك، وكبير في قصدك، وكبير في قولك، وكبير في فعلك، سوف يلهث كثيرون خلفك،

ليكونوا مثلك، ولن يكونوا، فأنت فريد في زمننا هذا، ويعرف هذا جيداً من كان قريباً منك.

رحمك الله رحمة الأبرار، وأسكنك من الجنان فسيحها، وبوأك من الدرجات أعلاها، وأعظم لك الأجر، لك ولأبنائك وأهلك وطلابك وأحبائك، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

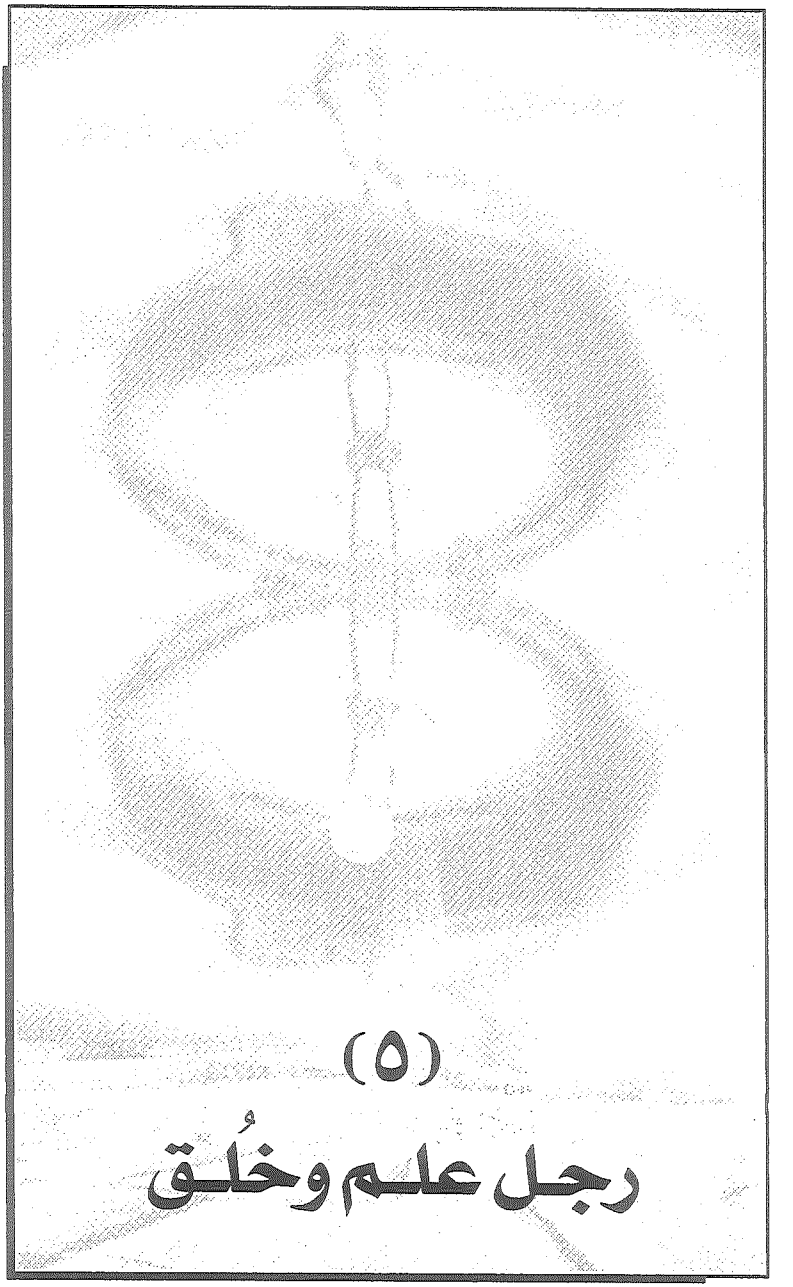

(٥)

رجل علم وخُلق

رجل علم وخُلق (*)

(٥)

ذلك هو الشيخ صالح بن علي بن غصون، الذي كان بالأمس بيننا ملء السمع والبصر، واليوم لم يبق لنا إلا آثاره الخَيِّرة، وذكرى كلما استرجعنا دقائقها امتلأنا عزة وفخراً، ومتعةً وبهجةً، أما العزة فلأن الله ـ سبحانه ـ أخرج من بيننا من نعتقد أن الله وفقه للقيام بالدور الإسلامي المتوقع منه في حدود معرفته، وفي نطاق اجتهاده؛ وأما الفخر فلأنه جمع ميزات قلّ أن تجتمع لإنسان، فعلمه كلما زاد زاد معه خلقاً وتواضعاً، قَرَّباه من الناس حتى

(*) نُشرت في ١٧/٤/١٤١٩هـ.

صار لهم واحداً منهم، ولهذا دخل القلوب دون طرق استئذان، بل فتحت له القلوب أبوابها واسعة مرحبة؛ وأما المتعة فلأن ما يقوله حق، ويصيب سويداء الأمر في صحة إصابة الهدف، وبلوغ المأمول، فيحل بهذا إشكال الناس، ويفرّج ـ بإذن الله ـ عنهم ما جاءت به ضائقات الزمن، ومنعرجات الحياة، حتى أصبح هدفاً لطالب المعونة في الأمور المعضلة، مع لسان نديّ، ويد سمحة كريمة؛ وأما البهجة، فلأن الوجه طلق، واللسان فيه رقة الحديث، وحسن اختياره، محاطاً ذلك بثغر باسم، ومداعبة تمد جسوراً بين الأنفس التي جعل الله لها مثل هذه الوسيلة طريقاً للالتقاء والارتياح.

هذا هو الشيخ صالح بن علي بن غصون الذي فقدناه، نجم هوى في هذه الدنيا، وسراج انطفأ، ولكن بعد أن هدى المدلجين، وأرشد السارين، ونرجو أن ينير الله له الطريق إلى جنات النعيم، فهو أقدر على الجزاء الأحسن لمن اجتهد في فهم دينه، والسير على نهجه، ونشره، ليعم عبقه، ويندا ح ضياؤه، وجعل وسائله لذلك محببة، من نفس رضية، وصبر متناه، وجعل كل ما يأتي به قدوة صالحة تجذب ولا تنفّر، وتقرّب ولا تبعد، وتُكْسب ولا تُخْسر.

رجل كفيف طلب أشرف المهن، وقصد أنبل الحقول، فوضع فيها جهده، وكابد الحياة القاسية، وتحمل جور الزمن وعواصفه في أيام

آبائنا، عانى وتغرّب، ومرض، وتعب، وأخذه الترحال يميناً ويساراً، فما أخذ هذا من عزمه شيئاً، بل شحذ همته، وزاد في بيان قصده، وإصراره على السير في الطريق الشاق حتى النهاية؛ سير بصير القلب، سراجه إيمانه بالله، ونوره في طريقه الطويل ـ سبحانه وتعالى ـ.

مثّل الشيخ صالح فئة من العلماء التي أدركت أن لها دوراً في هذه الحياة لا يقوم به غيرها، دور إبقاء الناس على المحجة الإسلامية السمحة الواضحة، وجعلتهم يؤمنون حقاً بأن كل معضلة تقابلهم لها حل حانٍ مريح في هذا الدين القويم؛ كان يشعر أنه وهو يخدم الناس يخدم دينه، ولهذا يسلك الطرق المقنعة

بما يضعه أمام المسترشد، كان رحمه الله متشرباً بالروح الإنسانية التي يمثلها هذا الدين، الذي بصفائه أنقذ البشرية من الجهل والضلال.

ذهب الشيخ صالح رحمه الله ولكنه أبقى نهجاً حميداً واضحاً يُتَّبع؛ فتلاميذه تشربوا علمه ونهجه مثلما تشرب هو من قبل نهج من اختارهم من العلماء قدوة له، فأضاف ما عندهم من حسنات إلى ما أنعم الله به عليه من طبيعة جُبل عليها، وعلم كسبه، فامتلأت كفّتا ميزان الفضل عنده.

لقد رفع الشيخ صالح رأس أسرته، ورفع رأس مواطنيه، ورفع رأس معاصريه من العلماء بأدائه واجبه على الوجه الأكمل الذي ساعدته

عليه طاقته البشرية، فلم يتوان، ولم يقصر، ولم يتهرب، ولم يطلب الدنيا، أو يهمل حق الآخرة، لم يوفر نفسه في وقت مرض، أو يتأبَّى في وقت شدة؛ كان جندياً، نعم الجندي لولي أمره، يبادر في حراسة ثغور القضاء، ومراكز العلم، لم يؤخره كبر سن، أو هزالة جسم، أو فقد بصر.

كان رحمه الله براً بمن يعرف ومن لا يعرف، كان لا ينقطع عن زيارة المرضى، وهو مريض معهم؛ كان يعضد له ليسير من غرفته ليزور مريضاً حل ضيفاً جديداً على المستشفى، لم يوفر جسماً لم يبق في أيامه الأخيرة إلا الهيكل العظمي، ولكن النفس الخيرة، الملأى بإشعاع

النبل، تعطيه ـ بعون الله ـ قوة الدفع؛ وكانت زيارته، وهو بهذه الحال بلسماً على قلب من يزورهم، هم وأهلهم.

من قرأ ما كتب عنه رحمه الله بعد وفاته، يدرك المكان الذي هيأه لنفسه في القلوب، والمنزلة التي تبوأها في النفوس؛ كلمات الرثاء تسيل دمعاً، والآهات الحرى تذيب القلوب، لم يرثه الناس لخلقه فقط، أو لعلمه فقط، أو لنبله فقط، بل لكل هذه الأمور، مجتمعة، وأكثر من هذا، كل واحد منهم رثى أباً وأخاً، ومن لم يعرفه تمنى أن قد عرفه، وشعر مما قرأ عنه أنه يعرفه، أجل، هنيئاً لمن عرفه، وهنيئاً لمن التصق به، وهنيئاً لمن تعلم منه، وهنيئاً لمن

اقتدى به، وهنيئاً وفخراً لأسرته، فلهم والد شاركهم فيه الكثيرون.

رحمه الله رحمة الأبرار، وأسكنه فسيح جناته، وجعل له بكل عمل خير عمله، ونية حسنة نواها، وخطوة برّ خطاها، وكلمة حق نطق بها، ومداعبة بنى بها جسراً بين متخاصمين، وإشارة أقام بها صرح ألفة بين متباعدين، ويد كرمٍ مدها دهنت خشونة، وحنان أزال به من نفسٍ وحشة، درجة من درجات الجنة.

إنه نعم المولى ونعم المجيب، وصلى الله على محمد وآله وصحبه.

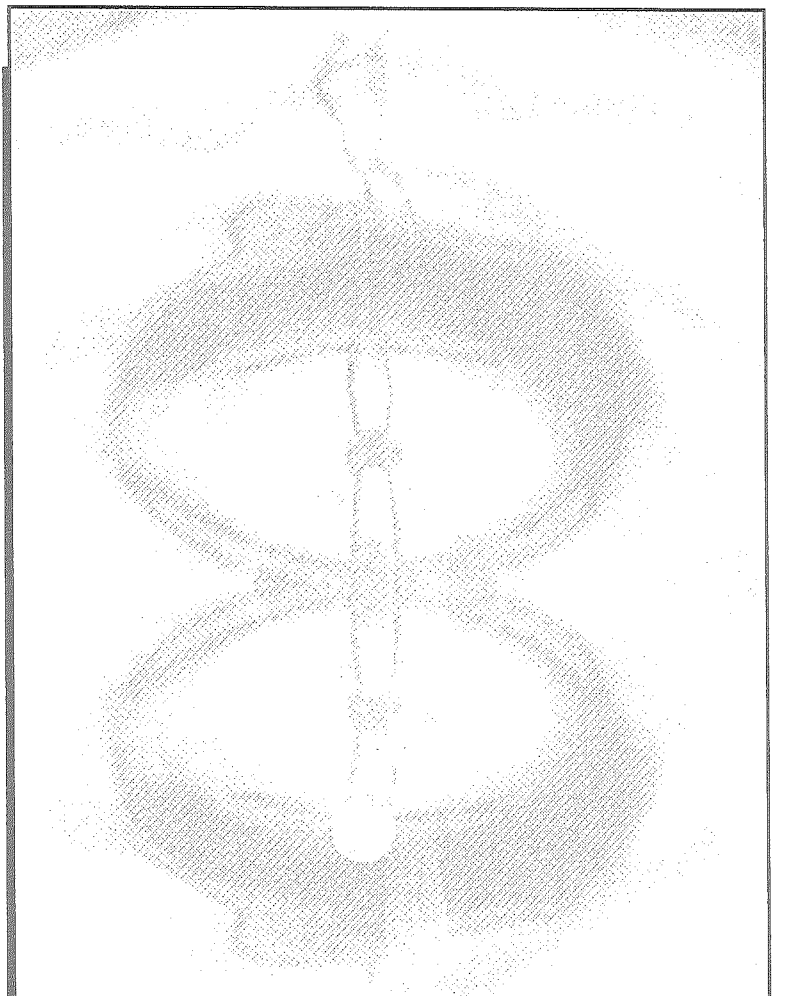

(٦)

رحمك الله يا معتوق جاوه

رحمك الله يا معتوق جاوه(*)

(٦)

وجعل من حروف اسمك منطلق عتقك من النار، وفوزك بالجنّة.

والموت نقاد على كفه
دراهم يختار منها الجياد

الموت حق، وكل حي سيموت، ولن يبقى إلا وجه الله سبحانه وتعالى.

وفقد الأحبة فقد حقيق، حرمان الحبيب من الحبيب، وانفراط عقد منتظم، يصاحب ذلك لوعة، ويُسايره حزن، ومظهر ذلك دمعة حرّى

(*) نُشرت في صحيفة الجزيرة بالعدد (١٠١٢٥) في ٦/ ٣/ ١٤٢١هـ الموافق ٨/ ٦/ ٢٠٠٠م.

على الخد، ولهب ممض في الصدر، وتنهد عميق فيه فوح الألم، وتنفيس الكلوم، وتخفيف الضيق المتراكم، واللّهدة الجاثمة.

وليس للمؤمن بالله إلا أن يقول «إنّا لله وإنا إليه راجعون»، جملة فيها اللجوء إلى الله، والأمل في لطفه وإحسانه، والمنّة بالصبر، والمساعدة على التقوى لمقابلة المصيبة، وتحمّل وقعها، وأثرها.

ويزيد الألم إذا ما أتى خبر الوفاة مفاجئاً، في وقت لم يكن القريب أو الصديق مهيأ لسماع الخبر المؤلم، كما حدث لي اليوم عندما سمعت بوفاة الصديق الحميم، والأخ العزيز معتوق محمد جاوه، فقد عرفته منذ الصغر، عندما كانت القلوب مزرعة للمحبة، والصدور

أُصُص[1] زهور وورود.

كنا معاً في المرحلة التحضيرية، قبل المرحلة الابتدائية، في المدرسة السعودية، في المعلاة، في مكة المكرمة، ودامت الصلة بيننا مع مرور الزمن، وقويت، وكانت الفرص أحياناً تسنح فتسمح لنا باللقيا بين حين وآخر، ولوجوده في مكة المكرمة ووجودي في الرياض كنا نكتفي باللقيا عبر الهاتف، وتشح الفرص أحياناً فلا تعطينا من نفسها إلا في الأعياد.

أخبرني أخ قابلته في الطائرة عن وفاته عندما سألته عنه، وقال إنه انتقل إلى رحمة الله منذ أشهر، فصدمت بهذا النبأ، وتراكمت طبقات الألم في صدري، أولاً لأني لم أعلم بذلك وقت وفاته، وثانياً لأني أدركت أني منقطع

(١) أصص : الأصيص هو مركن الزهور وجمعه أصُص.

عن مواصلته في الأشهر الأخيرة، وكنت كلما جئت إلى جدة أنوي مفاجأته بزيارة، ففاجأني الموت باختياره من بين صحبه ومعزِّيه ومحبيه.

فمن هو معتوق جاوه في نظري، هو ذلك التلميذ المحبوب من جميع زملائه وأساتذته، لما يتمتع به من حسن خلق، وما يشيعه حوله من بهجة في أي مكان يكون فيه، وفي أي مجلس يجلسه، لم يكن يضيق صدره بمداعبة زملائه الصغار مثله، وما يأتي عادة منهم في مثل هذه السن، وكلهم يغضبون إلا هو، وإذا ما حاول أن يجرب الغضب غلبه الضحك فانفجر به مجلجلاً، فوجهه لم يكن «يكاسمه» إلا الابتسام، مثل حياته لا تعرف إلا الخير.

كان يتيماً، ولهذا كان يحظى بالعطف

من الأساتذة ومن عم سلطان رحمه الله، بواب المدرسة، وكان أهلاً لهذا العطف، لأنه يستحقه، لما كان يتمتع به من طاعة لمدرسيه، وحسن صلة بزملائه.

وبقي حسن الخلق يكبر معه، ويزيد عمقاً وسعة مع الأيام، فزاد عدد أصحابه، وأصبحوا في كل مكان، وكان بهم حفيًا، فعل ذي النفس الزّكيّة، والأدب الجم.

لايزال وجهه الباسم أمامي، وضحكته العميقة، في أذني، والمواقف الحانية، والمواقف الطريفة، تعرض نفسها كأنها تحدث الآن.

كان ابتسامة عابرة في هذه الدنيا، وفي حياة من عرفوه وأحبوه، والابتسامات الصادقة لندرتها ثمينة في الواقع وفي الذكرى، وهي

بلسم عندما تمر سحابة من سحب الزمن الداكنة، كان معتوق رمزاً في أذهان محبيه للنظرة الجميلة إلى الحياة.

رحمك الله يا أبا محمد رحمة الأبرار، وجعل ابتسامتك رفيقاً لك في دار الخلود، إن فقدك كبير، وموتك ممض، وماذا يمكن الكلمات أن تصوره أو ترسمه مما نشعر به، وماذا تستطيع الكلمات أن تنفس به عن صدر يرزح تحت ثقل نبأ المفاجئة، وسعير وخز الألم.

أعظم الله الأجر والعزاء لابنك محمد وأهلك وإخوانك وأصدقائك وأحبائك، وأسكنك فسيح جنته، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

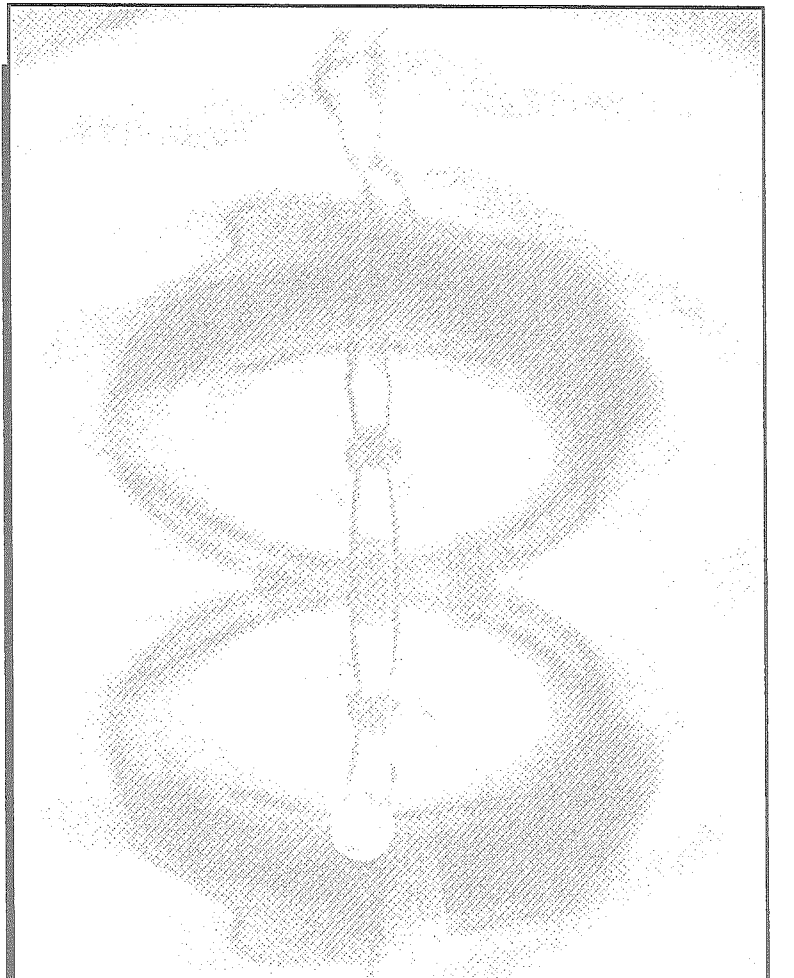

(٧)

وترجّل الفارس

وترجّل الفارس(*)

(٧)

ومات أستاذنا الكبير الشيخ الجليل حمد بن محمد الجاسر، وما موته موت واحد، ولكنه موت جيل كدّ وكدح وأنجز، وضحى وأكثر.

موت حمد الجاسر شمس علم كسفت، وقمر بحث خسف، وعمود أدب هوى، ومصباح فضل انطفأ، بموته فقد الميدان فارساً كان يصول بسيفه وصولجانه، لم يدانه أحد في حقول الفكر التي اختارها، ولم يجاره كاتب في السباق الذي دخل حلبته، بدأ سيره في رياض العلم

(*) نُشرت في صحيفة الجزيرة بالعدد (١٠٢١٥) السبت ١٨/ ٦/ ١٤٢١هـ الموافق ١٦/ ٩/ ٢٠٠٠م، وفي المجلة العربية العدد (٢٨٢) السنة ٢٥ رجب ١٤٢٠هـ/ أكتوبر ٢٠٠٠م.

منذ سنين، قبل أن يولد بعض أحبّته وجلسائه، وأخذ يطوي بساط العلم والبحث والإنتاج خطوة خطوة حتى تجمع له ما أراد مما يبني صرحاً علمياً شامخاً، تكلُّ الرقاب دون أن تصل بنظرها إلى قمته.

استجاب حمد الجاسر لنداء ربه، استجاب بعد أن أضنى السنين قراءةً، وبحثاً، وتنقيباً، وسَفَراً، وتوثيقاً، وكفاحاً، وتأليفاً، وتحقيقاً، ونقداً، وتوجيهاً، وتعليقاً، ودرساً، وتمحيصاً، وكلَّ أمر يُقدم عليه عالم عادة في مجال تعلقه واختياره.

خدم أبو محمد العلوم التي كانت أقرب إلى قلبه، وأولى برعايته، فلم يترك فيها زاوية إلا أطل في خباياها، ولا ميداناً إلا مسح جوانبه،

ولا درجاً إلا ارتقاه، ولا غامضاً إلا جلاه، ولا خفياً إلا كشف عنه غطاءه وأبانه، ولا مبهماً إلا أنار ديجوره، كان رحمه الله لا يرضى بالوقوف عند القشر، ولا يقنعه الظاهر، كان ـ أسكنه الله فسيح جناته، يغوص إلى اللّب، ويتعمّق في المخبر.

كان يأخذ منه البحث والتنقيب عن أمر صغير أشهراً، أو سنين، وقد يحتاج لتحقيقه إلى رحلات مضنيات، إلى بلدان بعيدة، لا يقف في وجهه عائق، ولا يمنعه تعب، ولا توئسه صعوبة، يناور، ويحاور، ويحتال، حتى يصل إلى الحقيقة، ولا يهدأ باله، وتطمئن نفسه، حتى يكتمل ما بدأه، حينئذ، فقط، يُلقي عصا التسيار، ولكن لوهلة، ثم يبدأ بحثاً جديداً مضنياً، يعطيه

كل قوته، وكأنه البحث الفريد في حياته.

أصبحت خبرته لا حدود لها، عَرَف مظان العلم، ورجالَه، وعرف الجادّ منهم في البحث والتنقيب، فوصل سببه بسببه. أول اهتمامه كان بالجغرافيا والمواقع، فعرفه الجغرافيون ورجال الآثار، وصار على رأسهم،، وعرفه المؤرخون وصار أَمامَهم وإمامَهم، وعرفه محققو الأنساب، إذ جاء حامل العَلَم في سريتهم، وعرفه الأدباء لأنه تقدم سربَهُم في خوض بحر هذا العلم الواسع العميق، عرفه كُتّاب التراجم إذ وجدوه قدوة في الميدان.

رأى نقصاً في بعض جوانب ثقافتنا، وحياتنا الفكرية، فأكمل ما استطاع في هذا الجانب، ووضع اللبنة ليُقتَدَى بخطته ومنهاجه

في هذا الحقل الواسع، المترامي الأطراف، وما كتابه عن الخيل إلا نموذج لهذه الفطنة والالتفاتة، وهذا جانب من حظّه (حظ البحث)، أن كان الملتفت إليه الشيخ حمد الجاسر، بغزير علمه، وسعة اطلاعه، وبعد حماسه، وصحة منهجه، وحسن معالجته، وما هذا هو العمل الوحيد للاقتداء، فكثير من حاملي أعلى الشهادات اليوم، في بلادنا، وخارجها، هم من تلاميذه، ويفاخرون بذلك، ويعلنونه بصوت جهوري على رؤوس الأشهاد، وأنا أولهم.

كانت الغيرة عند الشيخ حمد منطلقة أحياناً لما يتصدى له، وكأنه عود ندّ لمسته جمرة، ففاح عطره، غيرته على وطنه العربي، وكانت له في حماية حقوقه صولات وجولات، في حدود

العلوم التي يرعى حقولها، وغيرته على اللغة العربية، وله في هذا كفاح لحمايتها، وإضاءات لتوسعها وتصحيحها، وغيرته على العلم واستقامته، وله في هذا نقد وتصحيح وتحقيق، وغيرته على ما يعتقده، ويؤمن به، وله في هذا التفات جادّ وملحّ، لا يتهاون ولا يتراخى حياله.

سوف يفتَقد هذا الرجلَ المبجل أهلُه وأبناؤه وأقرباؤه، سوف يفتقده عارفوه وأصدقاؤه، سوف يفتقده من عمل معه أو عنده، سوف يبكيه ناديه والمترددون عليه فيه، سوف يبكيه العلم، والكتاب، والمخطوط والمطبوع.

سوف لا تراه المجامع العلمية بعد اليوم، وقد كان فارساً في ميادينها، سوف لا تراه النوادي الأدبية والعلمية، وكان من روادها عندما كانت قوة

جسمه تساعده على ذلك، سوف تفتقده المجلات والصحف، إذ سوف لا تطل منها مقالاته، ومقابلاته، وقد كانت عامرة بما يكتب وما ينطق، وسوف تفتقده آذاننا، وقد كان يشنفها بالمفيد الجديد المبهج، وسوف تفتقده عيوننا وقد تعودت على بشاشة وجهه، وحسن استقباله.

أجل سوف نفتقد رجلاً كان إذا همّ أنجز، وإذا التفت أكمل، وإذا تصدّى وفّى، وإذا قال شنّف، وإذا كتب شفى، همته في العلم قعساء، وسيره جد، ونظرته فاحصة، واستقصاؤه عميق، وتحقيقه ملحّ، ودأبه حثيث، لا يستسلم لصعوبة، ولا يحني رأسه لعائق، ولا يتساهل في حق، لا يستبعد بعيداً، ولا يشح على البحث بمال أو جهد، في كل بحر، اجتذبه، له فيه شبكة صيد،

وفي كل شبكة له صيد ثمين، تجتذبه ـ عليه رحمة الله ـ كلمة، ويشده خبر، وتوقفه ملاحظة، فلا يستريح حتى يتابع هذه، ويستقصى عن تلك، يسأل وينقب، ولا يمل حتى يبلغ الهدف.

ملأت كتبه الرفوف، وحظيت بمقالاته المجلات وأعمدة الصحف، واستقبله، أو زَارَهُ، فطاحل العلماء والكتَّاب، فأفاد منهم، وأفادوا منه، في مظان العلم ترى الوجوه إليه متطلعة، وبما سوف ينطق متعلقة، أعطاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذاكرة قوية واعية، ساعدته على التقصي والمقارنة، وسهلت عليه البحث، وأنجدته عند المباحثة والنقاش، دأب يخزن في ذهنه، دون تعمّد، الصغيرة والكبيرة.

كان الشيخ حمد ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ

حفيّاً باللغة العربية ومفرداتها، وأساليبها، وتراكيبها، واقفاً ديدَباناً دون دخول أي غريب على حماها، وأي متسلل إلى روضها الشريف، فالكلمة الأجنبية، تندس في الجملة، يراها عقرباً قد شالت شوكتها، وحيّة أبرزت نابها، يرفع هراوته، فيقضي عليها، ويُحلّ ابنة عرب مكانها، يستقيها من ملكته في اللغة أو في المعاجم، وتواضعه لا يجعله يستنكف أن يستشير من أجلها، فتجده لا يفتأ يسأل عن مرامي الكلمة الغريبة، حتى يُلبس الكلمة العربية ثوباً ضافياً يليق بها ممثلة للفكر العربي.

وحفاوته لا تقف هنا، بل تتعداه إلى دقة تحرير المواقع، وتدقيق الأنساب، وكأن هذه كلها قد وضعت في حماه، وأصبح وصياً عليها، فلا

يهدأ باله حتى يصل إلى كنه الحقيقة، ويعلنه.

أما كيف بدأ الطريق ليقف على المنبر، فكان أول خطوة على هذا الطريق أن بدأ ملاحظاته على الكُتَّاب، وكان في الوقت نفسه يقرأ ويخزن علمه، ولم يتخلّل انقطاعه للعلم إلا شعوره أحياناً أن سكوته على خطأ أديب، أو نقص كاتب، قد يُعمِّق الخطأ، ولهذا يخرج من صومعته، ويدلي برأيه، وفوجئ الذين يقولون عنه حينئذ أنه يهدم، وليس له بناء، ودهشوا عندما أزاح الستار عن المخزون، وتتالت كتبه تترى، فبهرت وأدهشت، وامتشق القلم للتأليف، فجاء سيله فيضاً كأنه كان وراء سد فتحت أبوابه، وجاء ماؤه مزبداً هادراً، فأحيا حقلاً هنا وحقلاً هناك، واستوى النبت، وتفتح الزهر، وتبين عنه

أن وراء الأكمة ماوراءها.

نعم ثم نعم، نتلفت حولنا مذهولين، لا نصدق أننا فقدنا بهجة النادي، وغرّيد الدوح، وفارس الميدان، ومصباح الإضاءة، ولسان الحق، وصولجان الحميّة، سوف نذهل عن أن نصدّق أن أستاذنا الجليل حمد بن محمد الجاسر مات، سوف نذهل إلى أن يعود إلينا رشدنا، فنذكر، وحق لنا ألا ننسى، أن كل شيء فان، ولا يبقى إلا وجه ربنا، ذي الجلال والإكرام، وأننا كلنا ميتون، وللطريق الذي سلكه الشيخ حمد، ومن سبقه، سالكون، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

رحم الله الفقيد الغالي، وأسكنه فسيح جناته، وأنزل عليه شآبيب رحمته، ووابل غفرانه، وجعل ما قدم في موازين حسناته،

وشاهداً له على حسن العمل، وسلامة النيّة، وصواب القصد، وقبل منه ما بذل من جهد، وجعل ما أمدّ من عمره دليل رضى منه عليه، وألهم أهله وفاقديه السلوّ والإحتساب، إنه نعم الجواد المجيب، وصلى الله على محمد.

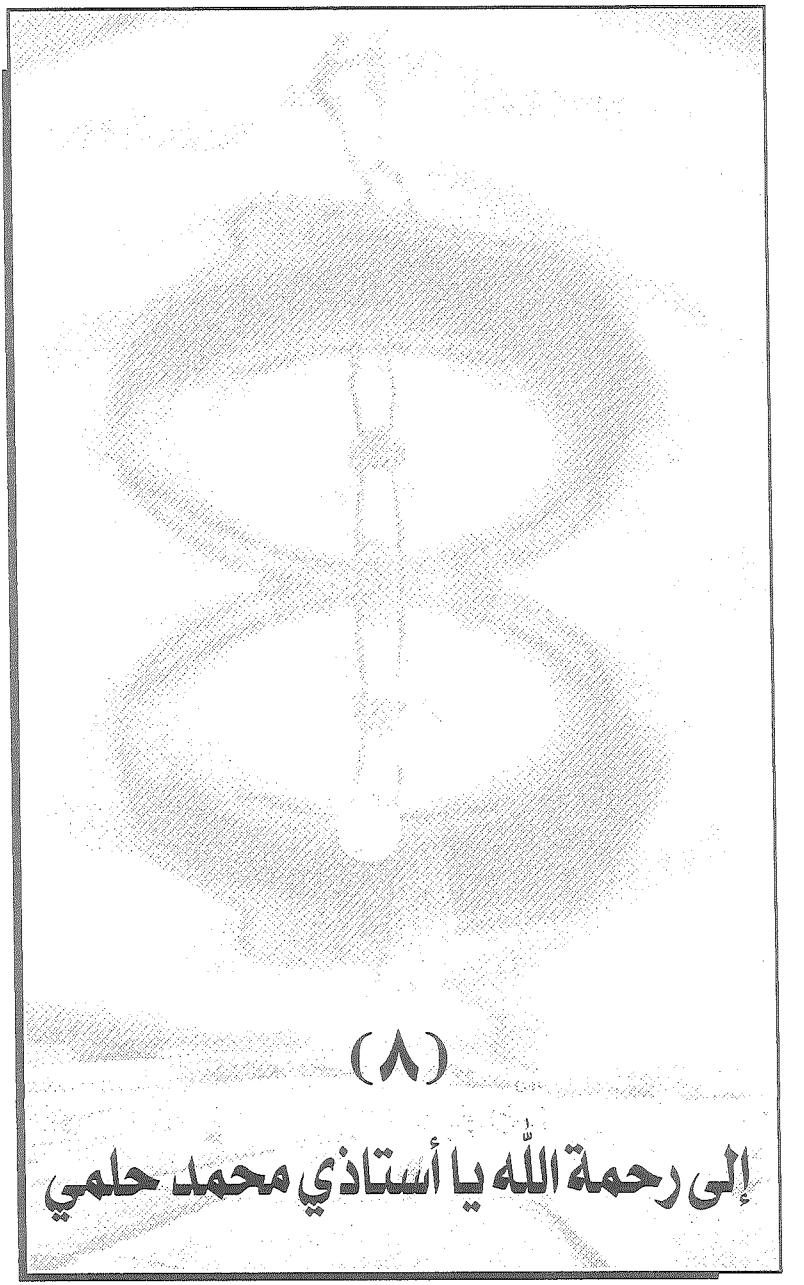

(٨)

إلى رحمة الله يا أستاذي محمد حلمي

إلى رحمة الله يا أستاذي محمد حلمي (*)

(٨)

قبل أسبوع من نهاية الشهر الماضي، وأنا أدلف إلى المستشفى في الرياض، على أثر عارض صحي، سمعت بوفاة أستاذي محمد حلمي ـ رحمة الله عليه ـ وهزني النّبأ، وكنت أود أن أعبر عن شعوري نحوه، ونحو فقده، إلا أنني للظرف الصحي الذي كنت تحت وطأته، لم أستطع أن أفعل إلا قهر عبرة اعتجرت في الحلق، ودمعة ترقرقت في العين، ولم أتمالك نفسي إلا أن استعرض ذكريات الصلة التي

(*) نُشرت في الجزيرة بالعدد (١٠٢٢٣) الأحد ٢٦/ ٦/ ١٤٢١هـ الموافق ٢٤/ ٩/ ٢٠٠٠م.

جمعتني بهذا الرجل الذي كان يمثّل لنا ـ طلابه ـ النبل وحسن الخُلق، والعطف المتنامي نحونا، والحرص على مصلحتنا فيما يجيد أن يوفره لنا، علماً ونصحاً وإرشاداً.

انتقل الاستاذ محمد حلمي إلى رحمة الله بعد عمر مديد لامس مئة عام، قضاها في خدمة أبنائه الطلبة، معلماً ومديراً، يحظون برعايته، ويتقبل تقديرهم وإعجابهم، لمَ لا، وهو الرجل الذي لم يُرَ غاضباً في حياته معهم، أو متجهماً في وجوههم.

إذا أقبل رحمه الله بقامته المديدة، ومشيته الصحية السويّة، تحركت القلوب لمقدمه، كان يدرّسنا الخط بأنواعه، ولا يكتفي بما حدده المنهج، ولا بعدد الحصص في الأسبوع، كان

بينه وبين طلابه التقاء كامل في الرغبة على إعطاء المزيد مما عنده، وعلى تقبل طلابه المزيد من علمه وفنه، فإذا كان ما هو مقرر عليهم حصة واحدة في الاسبوع أعطاهم ضعفها، وإذا كان المنهج في سنة من السنوات يقتصر على تعليم خط النسخ تعداه إلى خط الرقعة أو الثلث، كان الجاذب للطلاب ليس حسن الخلق، وجميل المعاملة فقط، ولكن مع هذا يأتي الخط الجميل، وتسهيل أمر قواعد الخط، وكان كل أنموذج يدور حول حكمة أو مثل، إن لم يسبق هذا آية أو حديث.

كان يأتي للمتميزين من الطلاب بكراسات للخط مطبوعة، يعطيها لهم زيادة في الجذب والتشجيع، وتسهيلاً للدقة والإتقان، لايزال

بعضها عندي إلى الآن، وعليها تصحيحه، وتعديل المعوج مما كتبت، بعض هذه الكراريس لاتزال عندي الآن، أحتفظ بها خدْراً لذكرى جميلة، ومهداً لاعتزاز، أنعم في صداه إلى اليوم، وعندما أتمعن في تصحيحه لما قدمته من خط أجد العناية التامة حتى عندما كنت مبتدئاً، فنظرته إلى فنّه ثابتة لا تختلف، عنايةً ودقةً وحرصاً.

كانت تلك الحقبة التي مررنا بها تعدّ للخط امتداداً لعناية العثمانيين به، والخطاطون حينئذ هم أتراك، أو قد درسوا على أتراك، وكنا في أول الأمر، على هذا، نظن الأستاذ حلمي تركي الأصل، ولعل ما ثبت هذا في أذهاننا اسم «حلمي»، وهو اسم كثيراً ما يسمي به الأتراك

أبناءهم، إلى أن فوجئنا، في يوم من الأيام، أن الأستاذ محمد حلمي لا يمت في نسبه إلى الأتراك بصلة، وأنه عربي ابن عربي، فهو محمد حلمي بن حسين حلمي بن علي آل سعيد، فزاد من مقامه عندنا، وزاد فخرنا أن يكون هذا الخطاط الماهر الفنان عربياً، مما غيّر مفاهيمنا فيما يمكن أن يكون عليه ابن العرب في هذا المجال وأمثاله من مجالات الإبداع الحضاري الجميل.

لم يكن الخط هو المادة الوحيدة التي وكل إليه تدريسها لنا، وإنما كان هناك أيضاً علم الصحة وخواص الأجسام، ولم يكن يدرس الصحة نظرياً فقط، وإنما كان رحمه الله يعيش هذه المادة عملاً، يطبقها بدقة على نفسه، ويطلب من طلابه تطبيقها، كان يرشدهم إلى المشية

الصحيحة، بانتصاب القامة، ورفع الرأس، ووزن الخطوة ورتابتها، وكان يغوص إلى أدق التفصيل في هذا، فيرشدنا مثلاً ألا نبلل شفاهنا باللسان، فقد يكون علق بالشفة غبار، وما كان أكثر الغبار حينئذ، وكان يرى أن نزيل ما قد يعلق على يمين الشفة أو يسارها بالإبهام والسبابة.

مثل الأستاذ محمد حلمي لا يموت فنه، فهو ينتقل من جيل إلى جيل، علّمنا رحمه الله تذوق الخطوط، ومساقط جمالها، ومتعة النظر إليها، ومتعة كتابتها، وعلمنا المقارنة بين خط وخط، وقاعدة وقاعدة، ونسق ونسق، كان يجد متعة في بَرْي الأقلام، ولا يتضجر من كثرة كسر الطلاب لسن أقلام «البوص»، ويطيل

البال في تعليم الطلاب بَرْيَها، وهذا فن دقيق قائم بذاته حينئذ في دنيا الأقلام، ولا يعرفه حق المعرفة إلا من عاصر زمنه، وعاسر عمله.

الأستاذ محمد حلمي مُرَبٍّ قدير، يضاهي بإنجازه التربوي حاملي أعلى الشهادات، دخل معترك الحياة مبكراً، وعانى شظف العيش، وشح فرص العمل قبل العهد السعودي، ولما يئس من الحصول على عمل حكومي اتجه رحمه الله إلى عمل حر يكون فيه سيد نفسه، مما يكون أقرب إلى قدرته حينئذ في التعليم، فخاض المعترك، ولم يفتح له الحظّ ذراعيه.

ثم بزغت شمس الحكم السعودي، وواكب ذلك الرغبة الملحة الفائقة في نشر التعليم، فوجد الأستاذ محمد حلمي أن لديه لهذا بضاعة

رائجة في هذا المجال، فدخل حقل التعليم، واستقر مدرساً بالمدرسة الأميرية، ثم مدرساً في مدرسة ابتدائية، ثم معلماً في المعهد العلمي السعودي، ثم مساعداً لمديره، ثم مفتشاً في وزارة المعارف، وخطاطاً رسمياً لها.

قضى الأستاذ محمد حلمي في التعليم أكثر من خمسين عاماً، وكان آخر عمل له خبيراً عاماً، في الدوائر الرسمية، لكشف التزوير، حتى تقاعد عام ١٣٨٨هـ، بعد عمل دائب نشط، مشرّف، نبيل.

ولعل القليلين يعرفون أنه كتب كتاباً جميلاً حقاً، سماه: (خواطر... خواطر من ذكريات)، طبعته شركة مكة للطباعة والنشر، في حدود عام ١٤٠٧هـ، في هذا الكتاب سجل حافل

موثق عن الحياة التعليمية والاجتماعية في مكة المكرمة قبل الحكم السعودي وبعده، ويعد من أهم المصادر لتاريخ التعليم منذ بدء الحكم السعودي.

والكتاب جذاب، تمسك فيه كاتبه بما يعنيه العنوان، فكان ما فيه وروداً وأزهاراً منتقاة من حياة حافلة، تبين الأولويات، والمراكز والتطور والأهداف في تلك الحقبة من بدء السعي لنشر العلم والتعليم، وتعطي لمحة موثقة عن أمور مفردة ولكنها قناديل يهتدي بها الباحث، وكاتب تاريخ التعليم في بلادنا.

سوف تبقى ذكراك، يا سيدي، حية بهجة في أذهاننا، تشاطر ما في قلوبنا لك من حب، وأنت الرجل الشريف، عزيز النفس، كريماً،

سوف يذكرك كل من قدّر فن الخط، حتى لو قل عدد هؤلاء، فالمقياس ليس في العدد، ولكن في النوع، ونوع هؤلاء يرقى إلى ما كنت ترجوه: (وأم الصقر مقلاة نزور).

رحمك الله رحمة واسعة، وأوسع لك في جناته، وأعظم الأجر لذويك، وجبر مصابهم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

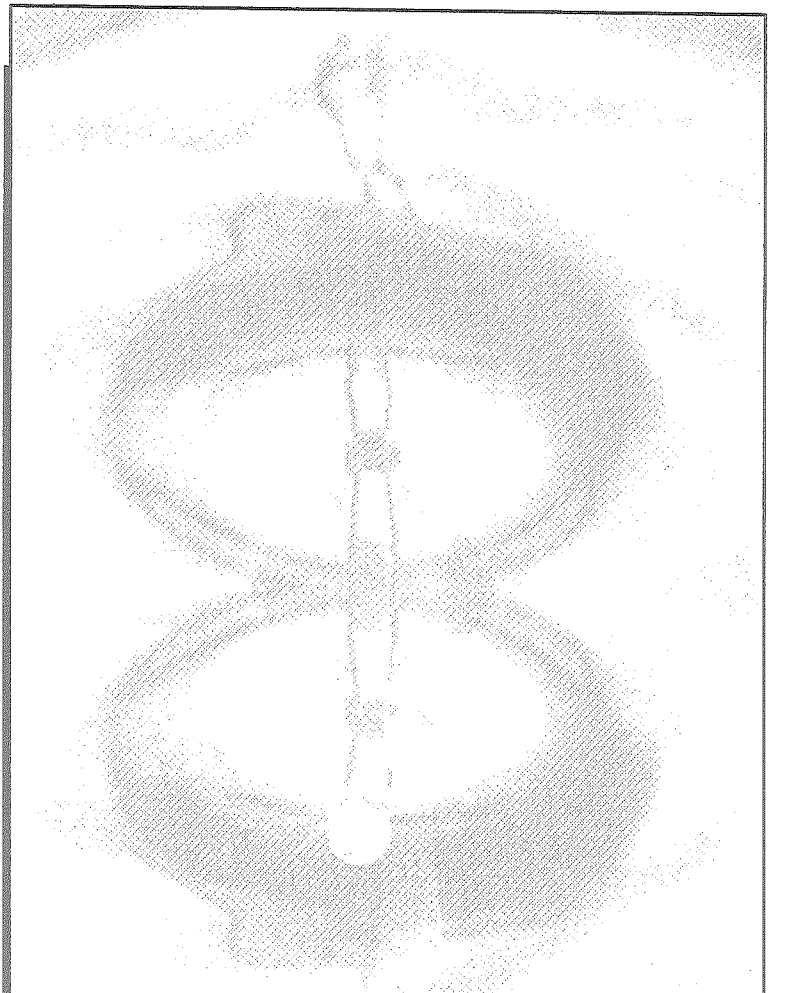

(٩)

فلتدمع عين الصحافة

فلتدمع عين الصحافة(*)

(٩)

أجل فلتدمع عين الصحافة، وليطرف جفنها، وليخشع قلبها، وليقل أهلها: إنا لله وإنا إليه راجعون، وليستلهموا من الله الصبر، وليترحموا على صاحب قلم أنار بمداده صفحات الصحف، وطالما ابتدع الأبواب، وفتح المنافذ على إبداع يسبق به، ليكون للصحافة السعودية نمطها الخاص، وشخصيتها المتميزة، التي تمثلها إسلاماً وعروبةً، وتفتحاً على عالم اليوم المتسابق، الراكض خلف مجالات الإنجاز والإبداع.

(*) نُشرت في صحيفة الجزيرة يوم الثلاثاء ٢٥/ ٨/ ١٤٢١هـ الموافق ٢١/ ١١/ ٢٠٠٠م.

أجل، لتدمع عين الصحافة، وليطرف جفنها، وليخشع قلبها، على ابن بارٍّ بها، مخلص لها، حان عليها، متفان في سبيلها، زوّجها حياته، ووقف عليها جهده، وانقطع لها ومن أجلها، ووصل سببه بسببها، هي عشقه الأول، وغرامه المتناهي، وحبه المتنامي.

كان الابن البار هو الأستاذ الحبيب حسن بن عبدالحي قزاز، عَلَماً عالياً في مجال الصحافة، والكتابة عما يعتقد أنه يعالج جانباً من جوانب المجتمع السعودي، ويخدم جوانب المصلحة العامة، تعددت المجالات التي طرقها، والمواضيع التي أبدى رأيه فيها، كان فيه صراحة لا تحرج، وجرأة ليس فيها تهور، كان لا يعالج داءً إلا بعد استقصاء وتمحيص، ولا يتطرق لأمر إلا بعد أن

يقلّب صفحات البحث فيه، مع حرص على معرفة وجهات النظر، لم يكن يتعصب لرأيه، وكان مستمعاً جيداً لوجهات النظر، يتخلى عن رأيه بسماحة متى تبينت له قوة رأي آخر، فعْل الشجاع الذي يغلب نفسه قبل أن يغلب الآخرين.

كان الحبيب حسن يعيش مقامه البارز في المجتمع، ويحافظ عليه في تصرفه، وفاءً لما عرف عن أسرته من عراقة في المجتمع، ومساهمة في تعضيد أعمال الخير فيه، وتلمس سبل رفعته، واعتلاء مكانه.

كثيرة هي اجتماعاتي به، ولقد وجدت فيه عمق فكر، وتجربة ناضجة، وثقافة واسعة، ولمست تواضعه، وعطفه على الناشئين من

الصحفيين، وأخذه بيدهم، ومساعدتهم على ارتقاء سلم المجد، وإفساح المجال لهم.

تُرَى كم من الأحياء البارزين في ميدان الصحافة اليوم أوطأ حسن له كتفه ليصعد عليه؟! وكم منهم مد له يمينه ليسلمه لمجد مؤثل في هذا الميدان؟ له على هؤلاء حقٌ اليوم في أن يقولوا: رحمه الله رحمة واسعة.

سوف يبقى مكان حسن قزاز في الصف الأول خالياً إلا إذا أدى تلاميذه الأمانة، وحملوا الرسالة بحق، محافظة منهم على مباءئه الصافية في العمل الصحفي، وتلمساً لخطوط الإبداع كما كان يفعل، ولا أخالهم إلا فاعلين، لأن النبتة الصالحة في الأرض الخصبة، تنبت الدوح، وتورق النبت، وتعطي الثمرة.

والفلاَّح في هذا المجال ماهر مخلص.

رحمك الله أيها الحبيب، وأسكنك فسيح جنّاته، وأعظم الأجر، وأحسن العزاء، ومنَّ بالصبر على أولادك وأهلك وأحبابك وأصحابك.

وإنا لله وإنا إليه راجعون.

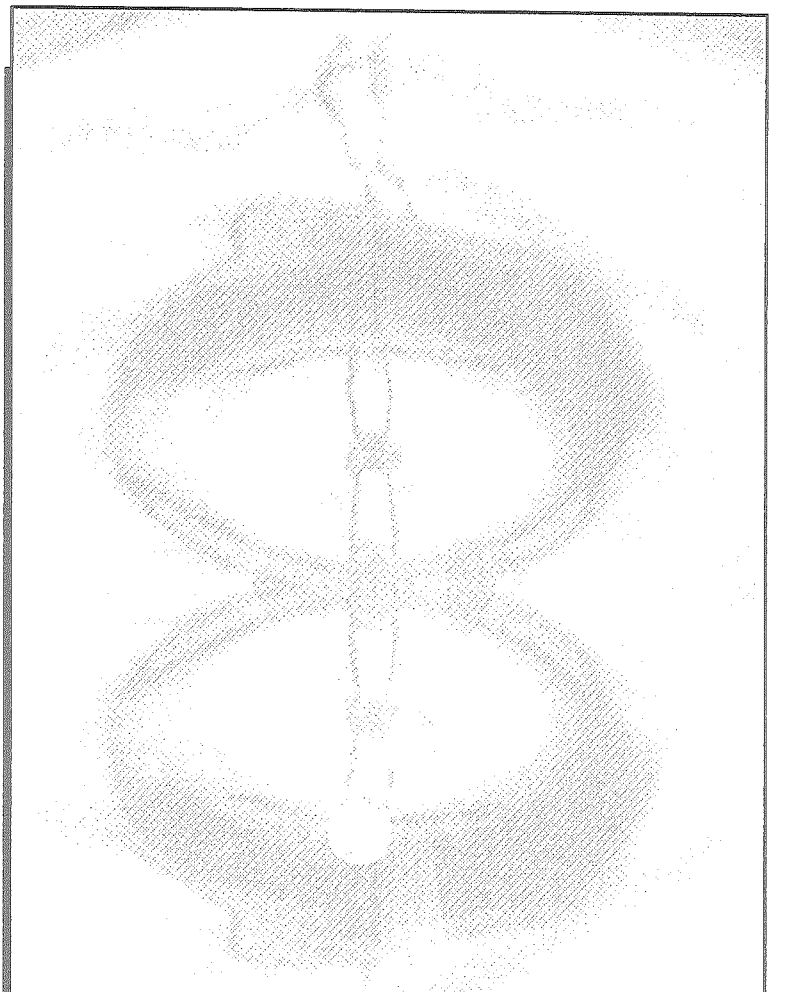

(١٠)

وداعاً أيها الأمير الحبيب

وداعاً أيها الأمير الحبيب(*)

(١٠)

أخبار الوفاة المفاجئة، التي لم يسبقها تمهيد بمرض، أو شيخوخة، تُفقد العقل توازنه، ويحتاج إلى وقت قبل أن يستوعب الخبر، وإمكان وقوع ما وقع، ويبقى بين الأمل الذي يدعو إلى الشك، إلى بدء وضوح الأمر، وأن الموت حق، ولا يمكن توقع مفاجأة حدوثه.

ثم يستعد العقل لقبول الأمر، ويبدأ انْزِرَاع الحزن في القلب بعمق، ويبدأ وزن فقد الغالي،

(*) نُشرت في صحيفة الجزيرة، العدد (١٠٥٣٢) ٩ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ الموافق ٣٠/ ٧/ ٢٠٠١م، وفي كتاب: «فهد بن سلمان ـ في ذاكرة معارفه ومحبيه» ص ٧٨، إصدار جمعية خريجي معهد العاصمة.

والتعايش مع الواقع، والتسليم بقدر الله، واستعراض شريط من الذكريات عن الفقيد، وهو شريط منير، فقد كان رحمه الله أميراً في مقامه، أميراً في أعماله، أميراً في خلقه، وفي كرمه، وفي أدبه، وفي سماحته، وفي حبه للناس، وفي عطفه على الفقراء، ومد يده للمحتاجين.

ابتسامته المشرقة تقدمه، وتثبت في الأذهان، لأنه لا يُرى منه غيرها، ووجهه المشرق يقابل به القريب والبعيد، حباه الله بنور يسبق مصافحته للقادم إليه، والمتحدث معه، وهذا توفيق من الله، نرجو أن يكون دليل رضى.

الدليل على ما كان يحتله في قلوب الناس تدافع الأمواج من البشر التي جاءت لبيت والده

للتعزية به، والمشاركة في شعور الحزن والأسى على فقده، وهذه الأعداد المتزاحمة ضربت رقماً قياسياً لم يذكر مثله، وهو يشهد أنه كان فريداً ـ عليه رحمة الله ـ وألسنة الخَلق ألسنة الحق، ولكن الخَلق في هذا العزاء لم يكتفوا بألسنتهم، ولكن أجسادهم تسابقت لتأكيد هذا، كان من بين المعزين من تعدى عمره الثمانين، ومن لم يصل الخامسة عشر، وكان من بينهم المقعد والمعوق، وجاء بعضهم من مسافات بعيدة من داخل المملكة وخارجها، لم تحل المسافات الطويلة بينهم وبين أداء ما شعروا أنه واجب عليهم، اختاروه اختياراً.

فَقْدُ هذا الأمير الحبيب فوق التعبير، تعجز

الكلمات أن تفي بحقه، وبحق أسرته الكريمة، وتقصر الكلمات عن أن تنقل شعور الحزن العميق، ويتأكد العجز، ولا يبقى إلا الدعاء له بالغفران، ولأسرته وعلى رأسها خادم الحرمين الشريفين، وسمو ولي عهده الأمين، وصاحب السمو الملكي النائب الثاني الصبر والسلوان.

إن مصاب صاحب السمو الملكي الأمير سلمان وأبنائه وأبناء الفقيد وأهله لجلل، ولم يذهب فهد بن سلمان عنهم، فهم يرونه في كل شبر من الأرض وطئته قدمه، وفي كل باب دخل منه، وفي كل سيارة ركبها، وفي كل سجادة صلّى عليها، وعلى كل مائدة جلس إليها، وسيكون حاضراً في قلوبهم في كل

عيد، وفي كل هلال شهر، وفي كل دخول فصل من فصول السنة، سوف يسمعون صدى صوته في كل اتجاه اتجهوا، وفي كل كلمة يذكرون أنه نطق بها، وستبقى نغمتها في الآذان ووقعها في الروح.

إلى رحمة الله أيها الأمير الحبيب، سوف يشارك ذويك في الحزن كثيرون ممن كنت تمد لهم يد المساعدة بسخاء وبلا منّ، سوف يشاركهم كل من فرّجت عن صدره ضيقاً، ومسحت دمعته بيد حنون، سوف يفقدك السامر الذي كان يضم محبيك وأهلك وأصدقائك، سوف يفقد تواضعك، وحنوك، وحسن خلقك، وأدبك الجم أناس اقتربوا منك، خصال الخير

كسبتها أباً عن جد، ورثتها بجدارة واستحقاق.

أما وقد استأثر الله بما أعطى فليس لنا إلا أن نستمطر عليك شآبيب رحمته ورضوانه، وصبراً واحتساباً لوالديك وإخوانك وأبنائك، وكل أفراد أسرتك، وعزاؤنا أن هذا طريق مسلوك، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

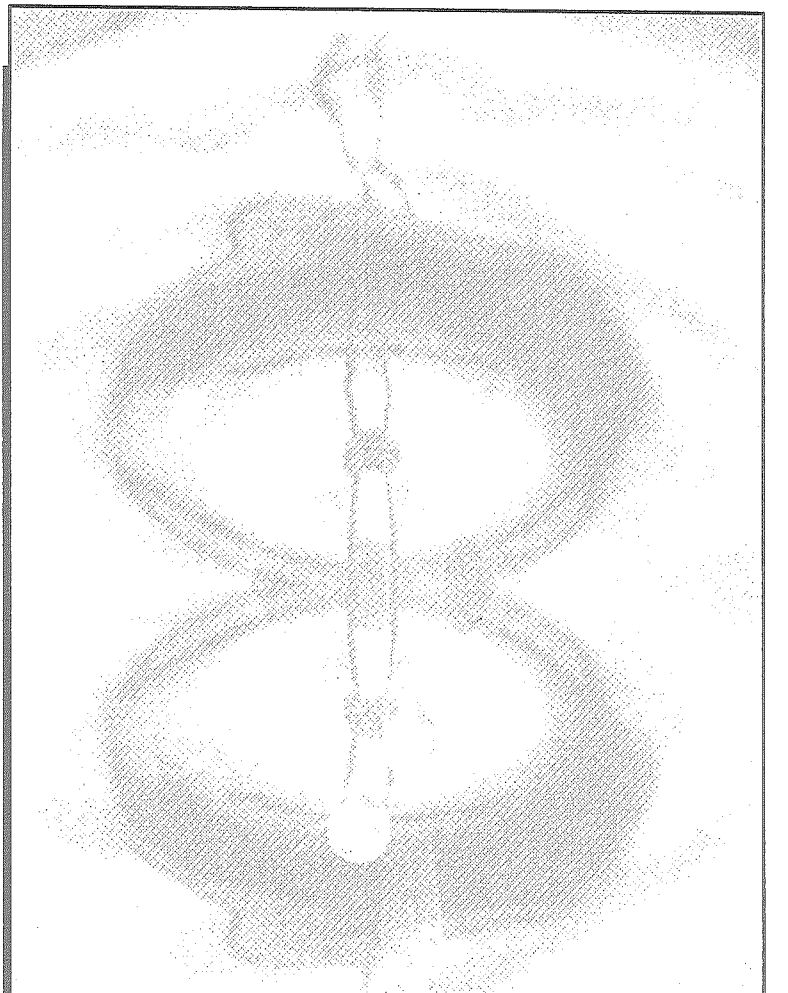

(١١)

رحم الله الأمير ماجد بن عبد العزيز

رحم الله الأمير ماجد بن عبدالعزيز(*)

(١١)

رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وأعظم الأجر والمثوبة لأبنائه وأهله والأسرة المالكة الكريمة، فهو فقيد غال عليهم، وعلى أصدقائه ومحبيه وعارفيه.

كان رحمه الله محبوباً، لما كان يتصف به من خُلُق كريم، ولما أنعم عليه من مزايا وصفات تجعله يدخل القلب من أول لقاء، ولما وهبه الله من حسن اللقاء، وحسن الاستماع، وحسن الحديث، والتواضع الجم، وإشعاره من يزوره،

(*) نُشرت في صحيفة الجزيرة، يوم الثلاثاء ١٣/ ٢/ ١٤٢٤هـ الموافق ١٥/ ٤/ ٢٠٠٣م.

أو يتصل به، أنه قريب إلى نفسه، مما يظهره من مودة واحتفاء.

كان رحمه الله لا يُرى إلا باسماً، البهجة على وجهه، والرقة في أقواله، والحنان والعطف في أفعاله؛ مع صواب في الفعل، وسداد في الرأي، ونية حسنة تحكم ما يأتي وما يدع.

كان رحمه الله يجيد الاستماع، ويناقش بهدوء، وكان يعامل الناس معاملة واحدة حسنة، فليس عنده إلا حسن الاستقبال لكل وافد، أيّاً كان، وقبل أن يصل زائره إلى منتصف مجلسه يكون قد سبقه إلى منتصفه محيياً، وإلى نهايته مودّعاً.

ملأ رحمه الله المراكز التي شغلها، وترك

بصمات تدل على نضج، وفهم، وإدراك، وإبداع، ونال بذلك رضى رؤسائه ومراجعيه، ودعاء من قضى حاجتهم، وأزال أسباب شكواهم، إن كانوا شاكين، وقبول سديد رأيهم إن كانوا مقترحين أو ناصحين.

امتاز رحمه الله امتيازاً ملحوظاً بسرعة البديهة، وحضور الذهن، وحذق الرد، وكثيراً ما كانت هذه المواقف تفتح مغاليق مصمتة، وتنقل الموقف من متجهم إلى سار باسم.

أيها الراحل الغالي!

لقد تركتنا، ولكنك سوف تبقى في سويداء القلب، وما هذه الدموع في مآقينا، والعبرات المتكسرة في صدورنا، والحزن الذي يصهرنا،

إلا صدى لمالك في نفوسنا من محبة وإعزاز، ومظهر من مظاهر اتجاهنا إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ رافعين الأكف، شاخصي الأبصار، إلى الذي اختارك إلى جواره، أن يكرم مثواك، وأن يفسح لك في جناته، إنه جواد كريم، وإن لله وإنا إليه راجعون.

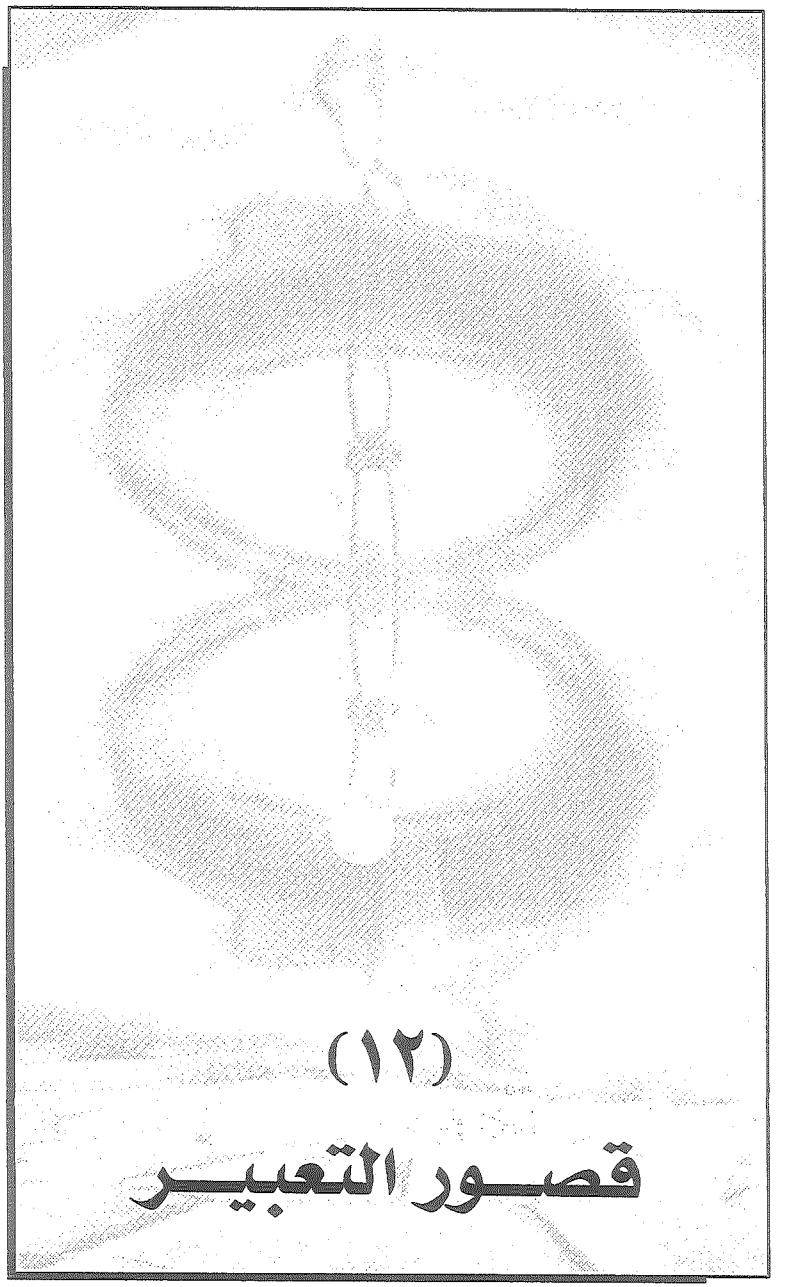

(١٢)

قصـــور التعبيـــر

قصور التعبير(*)

(١٢)

كلما هممت بكتابة جملة عزاء في صاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن سلمان بن عبدالعزيز عصى القلم، لأنه لا يجدها في مستوى الحدث، ولا تفي بحق الفقيد، ولا بما نكنه له ولوالديه وذويه من ولاء ومحبة وتقدير، ولاء اقتضاه الدين والحق، ومحبة فرشوا بساطها ليناً ناصعاً، وتقديراً استحقوه من تعاملهم مع جميع من اقترب منهم.

القلم استعصى على التعبير، والدمع

(*) نُشرت في صحيفة الجزيرة، العدد (٨٩٤) السنة (٤٤) السبت ١٧/ ٥/ ١٤٢٣هـ الموافق ٢٧/ ٧/ ٢٠٠٢م.

استعصى على أن يسيل مدراراً، ولكن الحزن أطاع، وفتحت له الأبواب والنوافذ، ودخل إلى القلوب، ولن يخرج منها إلا بالإيمان بالله أن له ما أعطى وله ما أخذ، وأن القدر حق، والموت حق، وطريقه طريق مسلوك، ولا يفقد من شاربي كأسه إلا الذين ملؤا حيزاً واسعاً في النفوس، ومكاناً عميقاً في القلوب.

ألسنة الخلق ألسنة الحق، وما أظهره المشيعون وما أظهره المعزون، وما تبين واتضح على الوجوه الحزينة، يؤكد أن الفقيد غال، وترك مكاناً منيراً في كل ربع وناحية، وذكرى عطرة في كل مجال أطل عليه، حَمَد فعلَه أفراد، وحمده جماعة وهيئات خيرية، وترك

بصمة نبيلة في نواحي المجتمع ستبقى تشهد له، ويدعو له من غرفوا من معين فضلها، والطموح في خدمة أهل وطنه ووطنه أمدّ له في باع حبه، فنقل جزءاً من نشاطه إلى خارج بلاده، ورفع رأس الوطن، وعرّف ببلاده من لا يعرفها، وعن طرق ترفع الرأس، وتؤكد الأصالة.

كلما أردت أن ألمس جانباً من جوانب حياته المضيئة وجدت غيري قد سبقني إليه، ووفّاه حقّه، لأن الأقوال تجاه هذا الحدث صادقة، ونبع من القلوب، وجاءت من أناس على صلة وثيقة بالفقيد رحمه الله !، وكنت أجد صداها في نفسي، وأشعر كأني قاعد على سنّ

قلم من كتبها.

لم تكن مفاجأة أن يأتي هذا السيل العظيم من التعبير عن العواطف في المقابلات، وفيما يكتب من الصحف، فالفقيد ارتسم عملاقاً بأصله الشامخ، ومحتده النبيل، وتربية والد هو خير مرب للناس، فكيف بأبنائه، رجل ربّي على خير الأساليب في التربية، ووظّف استعداد الفقيد للنشأة الصالحة المفيدة لنفسه ولمجتمعه.

عزاء والديه وأهله وأبنائه وإخوانه ومحبيه في رؤية هذه القلوب الخافقة، متدفقة العواطف، على أن الفقيد غال، وأنه لم يوضع تحت الثرى وإنما في سويداء القلوب.

إيماننا جعلنا نسلّم بقضاء الله وقدره، ولكننا

لن نستطيع إيقاف خفق القلوب، وانحجاز العبرات كلما رأينا أميرنا المحبوب، والحزن يعصر قلبه، ويعلو ملامح وجهه، التي تعودنا أن نرى البسمة لا تفارقها، وما على وجهه ـ شد الله أزره وقواه ـ إلا صورة لما في نفس والدته وجميع أهله.

وجدت أنه لم يبق لي إلا الدعاء للفقيد بأن يغفر له الله ويرحمه، ويسكنه فسيح جناته، وأن يجعل ما قدمه من برّ وخير درجات عليا عند رب كريم.

ودعاء من الأعماق لصاحب السمو الملكي الأمير سلمان وزوجته الكريمة ولزوجة الفقيد المصونة، وأبنائه وإخوانه، بأن يلهمهم الصبر

والسلوى، وأن يخفف عنهم وقع هذه النازلة، وأن يجعل هذا الصبر، وهذه السلوى، احتساباً.

وأسأل الله أن ينزل السكينة على قلوب الجميع، إنه هو السميع المجيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

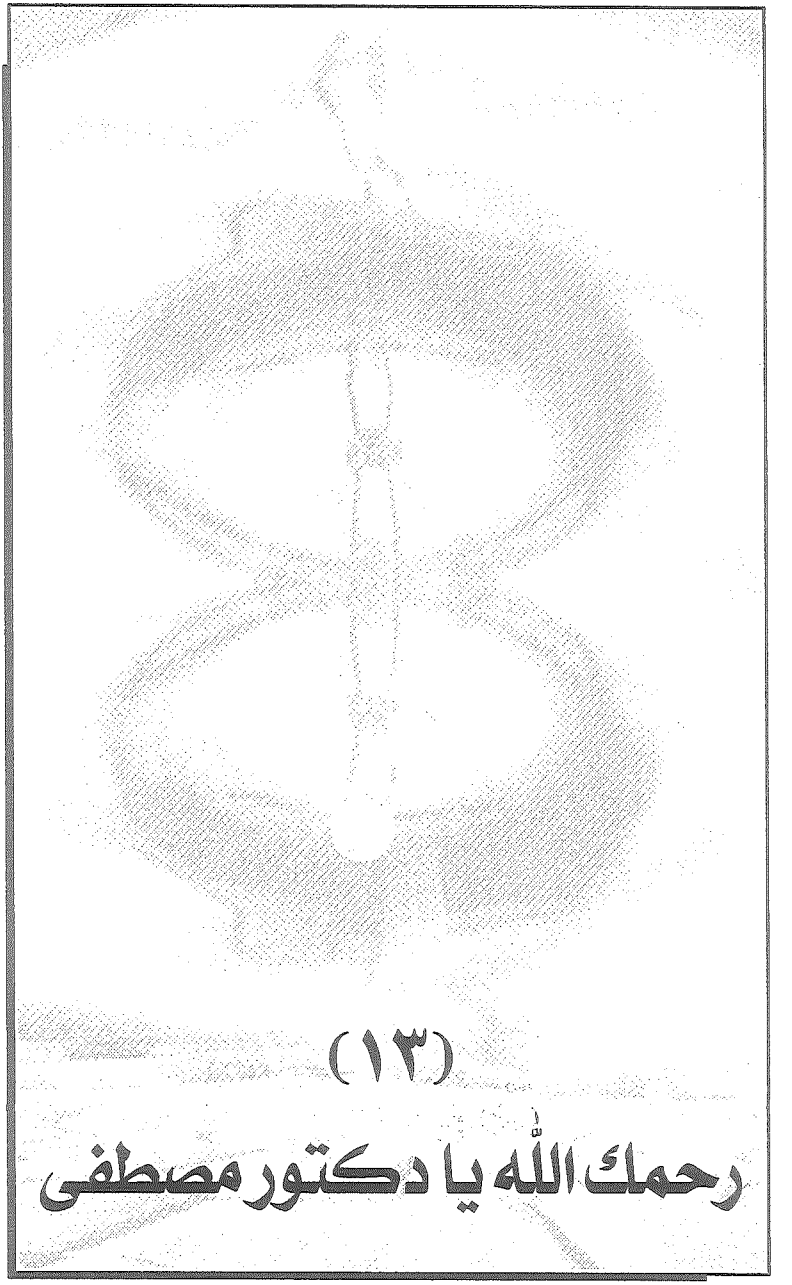

(١٣)

رحمك الله يا دكتور مصطفى

رحمك الله يا دكتور مصطفى (*)

(١٣)

كان بالأمس بيننا ملء السمع والبصر، واليوم استأثر الموت به، فأخذه عنا، وبقي لنا منه ذكريات منيرة، وأصداء عذبة مطربة، كنا ثلاثة إخواناً متحابين، متصافين، جمعتنا عمارة البعثة العربية السعودية في مصر، لم يحصل بيننا ما يحصل عادة بين الطلاب الذين يتجمعون في غرفة واحدة، هذا يريد أن ينام، وهذا يريد أن يذاكر، وهذا جاء متأخراً، فأشعل الأنوار، وأقلق راحة النائمين، وهذا جاءه ضيف ثقيل، جاء في

(*) نُشرت في صحيفة عكاظ، الأحد ٢٨/ ٣/ ١٤٢٣هـ الموافق ٩/ ٦/ ٢٠٠٢م.

وقت ليس وقت زيارة، واستوجب الأمر إشعال «السبرتاية»، وعمل شاهي له.

هذه المنغصات لم تمر بنا نحن الثلاثة: هاشم شقدار، رحمه الله، ومصطفى مير، رحمه الله، وعبدالعزيز الخويطر، لطف الله به. تركَنا مصطفى بعد سنة انتظار لدخول كلية الطب في جامعة الملك فاروق في الإسكندرية، فصار لنا بهذا مأوى، نأوي إليه عندما نزورها أنا وهاشم، وبقي لمصطفى في القاهرة مأوى يأوي إليه في الأجازات يتخلل وقتنا مآزق مالية، نحلها مجتمعين، ومقالب رائحة آتية بيننا، بقيت لنا ذكراها فسيفساء مضيئة، تحلو على الإجترار، وتبهج النفس والقلب.

بقيت العلاقة والصداقة إلى أن اخترمت يد المنون هاشم، فذهب عنا، وترك في القلب جرحاً

عميقاً، دامياً، لم يبهت مع الزمن، وكيف يبهت وذكرى هاشم ملأت سنين من أعمارنا.

واليوم اختطف الموت مصطفى، ونحن نرى، فطُعن القلب طعنة نجلاء، لأنه أخذ رجلاً لم يعرف إلا الخير في عمله وعلاقته مع من يتصل به، أثناء عمله لم يكن يهمه إلا مريضه الذي جاءه يطلب النجدة، كان ينسى نفسه وأهله، كان المريض هو شغله الشاغل حتى يبرأ.

رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، في الآخرة، كما منَّ عليه في الدنيا بأن جعله خيّراً، وأعطاه حظّاً في التوفيق في عمله، لم ينله من أمثاله إلا قليلون.

سوف يذكره كثيرون ممن مدّ لهم يد العون على قلة ما في يده، وساعدهم بعمله في حلكة

الليل، وفي أوقات يتمتع الناس فيها بالراحة، نوماً أو إجازة، وهو واقف نفسه لخدمة المحتاج، ومد يد العون للمساعدة.

يا دكتور مصطفى؛ لقد ذهبت إلى جوار رب رحيم، وإننا عليك لمحزونون، ولن ننساك، لن ننسى ابتسامتك، ولن ننسى شعور الحيرة على وجهك عندما لا تجد سبيلاً إلى عون من استعان بك، لن ننسى رزانتك وصمتك، وكلمات الحكمة التي تلقيها بعد صمت طويل.

أجزل الله لك المثوبة، وأحسن العزاء لأهلك وأصدقائك، وعزاؤنا أنك عشت سعيداً؛ وذهبت باسماً سعيداً، ألهمنا الله الصبر، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

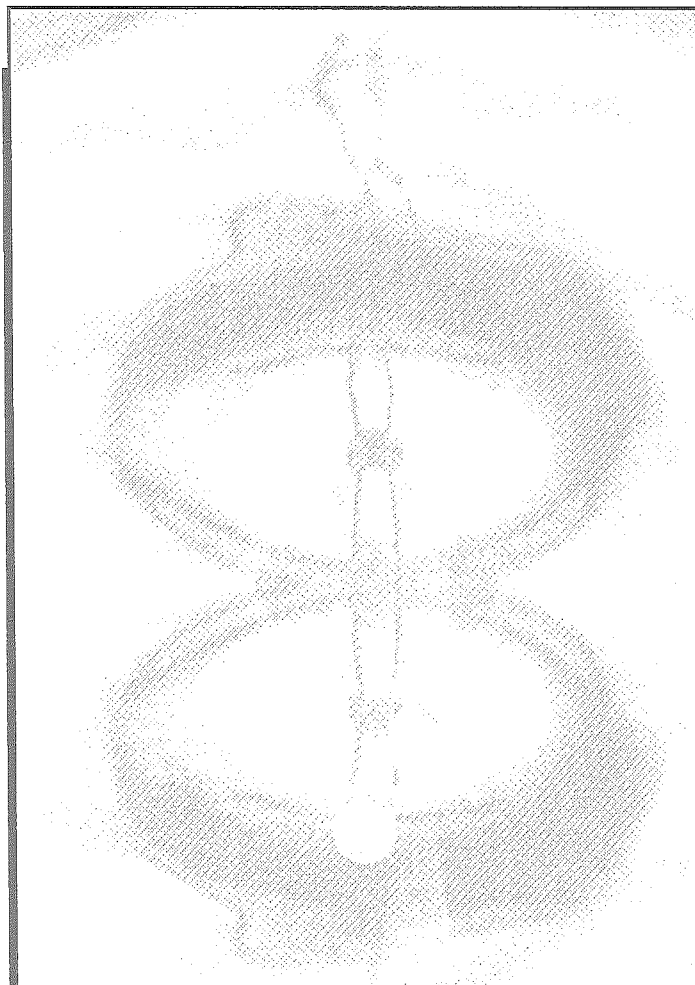

(١٤)

رضي الله عنه، ورحمه، وغفر له

رضي الله عنه، ورحمه، وغفر له(*)

(١٤)

منذ نعومة أظفارنا، ومنذ أن بدأنا ندرك، علّمونا في المدرسة، أن صيغة الدعاء للميت والحي هي في صيغة الماضي، فيقال: «رضي الله عنه، ورحمه الله، وعفا عنه، وغفر له، وتجاوز عن سيئاته، ووفَّقه، وشفاه، وعافاه، وتقبَّل منه، وأراحه من تعبه، وأصلَحَه، وأصلَحَ بنيه، وجَعَلَ الجنة مثواه.. وهكذا!»!!.

صيغ ألفناها، ودرجت عليها ألسنتنا،

(*) نُشرت في صحيفة (الجزيرة)، العدد (٩٣٠٨) في ٢٦/ ١١/ ١٤١٨هـ الموافق ٢٤/ ٣/ ١٩٩٨م، وكتب الصديق الشيخ أبو عبدالرحمن ابن عقيل مقالاً فيها في المجلة العربية، العدد (٢٥٣) السنة (٢٢) (صفر ١٤١٩هـ/ يونيه ١٩٩٨م).

واطمأنت إليها قلوبنا، وطربت لها أسماعنا، ووجدنا هذه الصياغة في كتب الصحاح، وفي كتب الدين المعتبرة، وكتب التاريخ المقبولة.

ثم فجأة منذ خمس سنوات تقريباً، بدأت هذه الصيغ تختفي، وتبعد، بمتابعة وإصرار، فبدأنا نسمع: يحفظه الله، ويغفر له، وهكذا بقية أنواع الدعاء، ولم تأت هذه الصيغ تدريجاً، بل جاءت دون تدريج، في وسائل الإعلام، وفي الصحف، وبإصرار حتى أني في حالات متكررة وجدت أن ما أرسله للنشر، وفيه عبارة: «حفظه الله»، تُبدل عند الطبع بعبارة «يحفظه الله»!!.

وقلت لنفسي: لعل بحثاً أوصل إلى خطأ ما تعلمناه، وتبين أن هناك محذوراً في صياغة

الماضي، وأن الصحيح هو صيغة المضارع؛ ولأتأكد سألت أوسع رجال الدين علماً، وأعلاهم مقاماً، وأقربهم إلى التقوى وخوف الله، فقالوا: إنه لا بأس بالتعبير القديم: «رحمه الله».

وفكرت في الأمر، فلم أجد سبباً واضحاً لتبني هذا التعبير، وجفوة المعتاد، وبدأ الخوف يتنابني، وخشيت أن تكون هذه مرحلة دُسَّت علينا، بغفلة منا، وأنه بعد مدة سوف نبدل «يحفظه الله»، بكلمة: «يحفظه الرب»، ثم بكلمة: «يباركه الرب»، وبهذا ندخل نهاية الخطة، وفي دين آخر، له أهله، ولهم تعبيرهم.

الحذر واجب، إذا رأينا الظاهرة، ولم نعرف أسباب مجيئها، ولا مرامي أهدافها وأغراضها،

وقد يخيفنا ما لا يخيف، ونخشى ما لا داعي للخشية منه، ولكن الغموض، غالباً، يثير الفزع، فرجل في الصحراء، قرب غار، يسمع حركة في الظلام، فيخشى أن يكون هناك ذئب أو ضبع، ولو عرف الحقيقة لوجد أن الحركة من جرذ، فهو خاف مما لا يخاف منه، ولكنه لا يُلام، بل يُحمد فعله، لأنه من باب الحذر، والحذر حزم، والحزم ممدوح.

تحدثت مع بعض الإخوان الإعلاميين، واقتنعوا بما أبديت، وبعض الإخوان الصحفيين وافق رأيهم رأيي، خاصة لما ذكرت أن حجتي تكمن فيما شرحت، ثم في الأدعية المعتبرة التي نرددها ونؤمل الأجر من ورائها، لأننا استجبنا

فيها لنداء، ديننا، فمثلاً نقول: صلى الله عليه وسلم، ولو قلنا: يصلي الله على النبي ويسلم، لارتفعت حواجب كثيرة متعجبة من هذا التغيير، ولتساءل الناس عن أسباب ترك ما اعتادوا عليه، ونحن في غنى عن الحياد عن جادة حفرها آباؤنا بأدوات التقوى والصلاح، والتقرب إلى الله ـ عز وجل، وفضَّلنا رأينا على رأي من جمعوا الصحاح، وأمهات كتب الدين الملأى بتكرار عبارة «رضي الله عنه» وأخواتها من جمل الدعاء والاستغفار.

والذي أفزعني قبل أسبوع أني رأيت في إحدى صحفنا نصّاً قديماً، المتوقع أن يكون الترحم فيه بما عرفناه: «رحمه الله»، ولكنه غيّر

إلى «يرحمه الله»، فإذا استمر هذا التغيير في النصوص القديمة فسوف لا يبقى أثر لصيغة الماضي في الدعاء، وهذا أمر في نظري خطير، ومحو لصيغة دينية في التراث، لا تنبذ، أو تبعد، إلا لسبب وجيه.

والله المستعان، والهادي إلى الصراط المستقيم.

الفهـــارس

صفحة

(١) فهرس المواضيع حسب ورودها ٢٠١

(٢) فهرس المواضيع حسب حروف الهجاء ٢٠٢

(٣) فهرس الأسـماء ٢٠٥

(٤) فهرس الأماكن ٢١٣

(٥) فهرس المراجع والمصادر ٢١٦

(٦) فهرس الأبيات الشعرية ٢١٧

(١) فهرس المواضيع

حسب ورودها

صفحة

(١) تمهيـــد ٧

(٢) شنين الدموع ١٧

(٣) (١) فقد صديق ٨٥

(٤) (٢) عزيز ضياء ٨٩

(٥) (٣) رحم الله الشيخ حسن ٩٧

(٦) (٤) نجم أفل، وحبيب ترك ١٠٣

(٧) (٥) رجل علم وخُلُق ١١١

(٨) (٦) رحمك الله يا معتوق جاوه ١٢١

(٩) (٧) وترجّل الفارس ١٢٩

(١٠) (٨) إلى رحمة الله يا أستاذي حلمي ١٤٣

(١١) (٩) فلتدمع عين الصحافة ١٥٥

(١٢) (١٠) وداعاً أيها الأمير الحبيب ١٦٣

(١٣) (١١) رحم الله الأمير ماجد..... ١٧١
(١٤) (١٢) قصور التعبير ١٧٧
(١٥) (١٣) رحمك الله يا دكتور مصطفى ١٨٥
(١٦) (١٤) رضي الله عنه، ورحمه وغفر له ١٩١

(٢) فهرس المواضيع

حسب حروف الهجاء

صفحة

(١) (٨) إلى رحمة الله يا أستاذي حلمي ١٤٣

(٢) تمهيـــد ٧

(٣) (٥) رجل علم وخُلُق ١١

(٤) (١١) رحم الله الأمير ماجد ١٧١

(٥) (٣) رحم الله الشيخ حسن ٩٧

(٦) (١٣) رحمك الله يا دكتور مصطفى ١٨٥

(٧) (٦) رحمك الله يا معتوق جاوه ١٢١

(٨) (١٤) رضي الله عنه، ورحمه وغفر له ١٩١

(٩) شنين الدموع ١٧

(١٠) (٢) عزيز ضياء ٨٩

(١١) (١) فقد صديق ٨٥

(١٢) (٩) فلتدمع عين الصحافة ١٥٥

(١٣) (١٢) قصور التعبير ١٧٧
(١٤) (٤) نجم أفل، وحبيب ترك ١٠٣
(١٥) (٧) وترجّل الفارس ١٢٩
(١٦) (١٠) وداعاً أيها الأمير الحبيب ١٦٣

(٣) فهرس الأسماء

(أ)

إبان بن الحجاج : ٢٨

إبراهيم : ٢٦

إبراهيم (بن الرسول ﷺ) : ٢٧

ابن الأهتم : ٦٨

أبو بكر : ٣٩

أبو بكر بن عياش : ٣٤

أبو ذؤيب الهذلي : ٦١

أبو ذر الهمداني : ٤٣

أبو شأس : ٧٩

ابن عبد ربه : ١٧ (هـ)، ٢٠، ٦١، ٧٦

أبو العتاهية : ٥٤، ٦٩

أبو قلابه : ٢٢

أبو نواس : ٥٧

أبو هاشم الإيادي: ٥٩
أتراك : ٤٨
أحمد بن سلمان : ١٧٩
أسماء بنت أبي بكر (ذات النطاقين) : ٨٣
الأصمعي : ٢٠، ٧٣
أفنون (ضريم بن معشر بن ذهل بن تيم بن عمرو بن مالك التغلبي: ٥٢
امرؤ القيس : ١٧ (هـ)
أميمة : ٦١
الأنصار : ٣٠
أوس بن حجر : ٨٠

(ب)

بنو عدي بن كعب : ٣٢
بنو مغيرة : ٣٣

(ث)

ثابت بن أنس : ٣٥

(ج)

الجاحظ : ٩٢

(ح)

الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف : ٨١
الحسن بن أبي الحسن : ٢٥
حسن بن الشيخ : ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠١
حسن بن عبدالحي قزاز : ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠
الحسن بن هانئ : ٦٨
حماد بن سلمه : ٣٥
حمزة بن أبي طالب : ٣١
حمد الجاسر : ١٣١، ١٣٢، ١٣٥، ١٣٨، ١٤١

(خ)

خالد بن الوليد (أبو سليمان) : ٣٣، ٣٤
خباب : ٣٧
الخشني : ٥٨
الخنساء : ٥٣

(د)

داوود الطائي : ٣٧، ٣٨

(ذ)

ذر بن أبي ذر الهمداني : ٤٣، ٤٤

ذو الرمة : ٣٤

(ر)

الرسول (ﷺ) : ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٥، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٥، ٨١، ٨٢

الرياشي : ٥٨

(ز)

الزبير بن العوام : ٨٣

زيد بن الخطاب : ٣٢

(س)

سعيد بن أبي الحسن : ٢٥

عم سلطان (البواب) : ١٢٧

الأمير سلمان : ١٦٨، ١٨٣

ابن السمك : ٣٧

(ش)

شأس : ٧٩

شركة مكة للطباعة والنشر : ١٥٢

الشعبي : ٢٦

(ص)

الشيخ صالح بن غصون : ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٣
١١٥، ١١٦، ١١٧
صفية : ٣١

(ض)

ضريم بن معشر بن ذهل بن تميم بن عمرو بن مالك التغلبي (أفنون)
: ٥٢

(ع)

عبدالعزيز الخويطر : ١٨٨
عبدالله بن ثعلبة : ٧٨
عبدالله بن مسعود : ٣٦
عبدالمجيد شبكشي : ٨٧، ٨٨
عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز : ٢٢، ٤٦
عبدالملك بن مروان : ٤١
عتبة بن أبي سفيان : ٤٨
عثمان بن عفان (رضي الله عنه) : ٤٢، ٤٣
العثمانيون : ١٤٨

عزيز ضياء : ٨٩، ٩١، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦
علي بن أبي طالب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) : ٣٧
عمر بن الخطاب : ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٧١، ٧٢
عمر بن ذر : ٤٦، ٤٧
عمر بن عبدالعزيز : ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٤٦

(ف)

فاطمة بنت محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : ٣٥، ٣٦
الفـــرزذق : ٣٤
فهد بن سلمان : ١٦٥ (هـ)، ١٦٨

(ق)

القرشي : ٦٥
قتيلة بنت الحارث : ٨١

(ك)

كنعان الخطيب : ٥٥

(ل)

لبانة بنت علي بن ريطة : ٨٣

(هـ)

ماجد بن عبدالعزيز : ٧٣
مالك بن الريب : ٤٩
مالك بن أنس : ٣٥
مالك بن نويرة : ٨٠
متمم بن نويرة : ٧٩
محمد الأمين بن هارون الرشيد : ٦٨، ٨٣
محمد بن بشير : ٥٣
محمد بن الحجاج : ٢٨
محمد حلمي بن حسين حلمي بن علي آل سعيد : ١٤٣، ١٤٥ ١٤٦، ١٤٨، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢
محمد بن سليمان : ٤٤
محمد بن عبدالله العتيبي : ٧٩
محمد بن عبدالوهاب : ١٠٢
محمد العوضي : ٥٥
مسلمة بن عبدالملك : ٢٤
الدكتور مصطفى عبدالغفور مير : ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠
معاويـــــة : ٤١

معاوية بن أبي سفيان : ٤٨
معتوق جاوه : ١٢١، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٨

(ن)

نايلة بنت الفرافصة الكلبية : ٤٢

(هـ)

هاشم شقدار : ١٨٨
هدبة العذري : ٥٣
هذيـل : ٨٦
ابن هشام : ٨٢

(و)

الوليد بن طريف : ٨٣

(ي)

النبي يعقوب (عليه السلام) : ٢٥
النبي يوسف بن يعقوب (عليهما السلام) : ٢٥

(٤) فهرس الأماكن

(أ)

الأثيل : ٨١

الإسكندرية : ١٨٨

إلاهة : ٥٣

أود : ٤٩

(ب)

بقيع الغردق : ٧١

(ت)

تركيـا : ٥٥

(ج)

جامعة الملك سعود : ١٠٠، ١٠١

جامعة الملك فاروق : ١٨٨

جـــدة : ١٢٦

(ر)

الريـاض : ١٢٥

الرمـل : ٥١

(ط)

الطائـف : ٩٩

الطبسان : ٤٩

(ق)

القاهـرة : ١٨٨

(ل)

لنـدن : ٩٩

(م)

المدرسة السعودية : ١٢٥

المدينة المنورة : ٣١، ٣٢

المشـرّق : ٦٣

مصـر : ٩٩، ١٧٧

المعـلاة (بمكة) : ١٢٥

المعهد العلمي السعودي : ١٥٢
مكـــة المكـــرمة : ١٠٠، ١٢٥، ١٥٣

(و)

واســط : ٥٩
وزارة المعارف : ١٠٠

(٥) فهرس المصادر

(١) خواطر.. خواطر من ذكريات :
للأستاذ محمد حلمي
شركة مكة للطباعة والنشر
عـام : ١٤٠٧هـ.

(٢) العقد الفريد :
لأبي عمرو أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
طبعة دار الكتاب العربي - بيروت.

(٦) فهرس الأبيات الشعرية

صفحة

(ب)

وربيت شأساً لريب الرمان
فللّله تربيتي والنصب
٧٩

وما الدهر والأيام إلا كما ترى
رزية مال أو فراق حبيب
٤٢

أأخضب رأسي أم أطيّب مفرقي
ورأسك مرموس وأنت سليب
٧٨

(ح)

ملّ الأحبّة زورتي فجفيت
وسكنت في دار البِلى فنسيت
٥٩

(ح)

الآن لما كنت أكمل من مشى
وافترّ نابك عن شباة القارح
٢٨

ألا عللاني قبل نوح النوائح
أو قبل اطّلاع النفس بين الجوانح
٥٣

(د)

والموت نقّاد على كفه
دراهم يختار منها الجياد
١٢٣

(ر)

فلئن بكيناه لحقٌ لنا
ولئن تركنا ذاك للصبر
٢٦

من شاء بعدك فليمت
فعليك كنت أحاذر
٦٧

وعما قليل ترى باكياً لنا
سيضحك من يبكي ويعرض عن ذكري
٦٠

طوى الموت ما بيني وبين محمد
وليس لما تطوي المنية ناشر
٦٨

ومالي لا أبكي وتبكي صحابتي
وقد ذهبت عنا فضول أبي عمرو
٤٢

(ض)

أسكان بطن الأرض لو يقبل الفدا
فدينا وأعطينا بكم ساكني الأرض
٦٥

(ع)

أمن المنون وريبها نتوجع
والدهر ليس بمعتب من يجزع
٦١

لعمري وما دهر بتأبين هالك
ولا جزع ما ألم فأوجعا
٨٠

أيتها النفس أجملي جزعا
إن الذي تحذرين قد وقعا
٨٠

(ق)

يا راكباً إن الأثيل مظنّة
من صبح خامسة وأنت موفق
٨١

(ك)

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى

فدعني فهذي كلها قبر مالك
٨٠

(ل)

لعل انحدار الدمع يعقب راحة
من الوجد أو يشفي شجيّ البلابل
٣٤

(م)

يا ربّ إن عظمت ذنوبي كثرة
فلقد علمت أن عفوك أعظم
٥٨

أضحت بخدي للدموع رسوم
أسفاً عليك وفي الفؤاد كلوم
٧٩

ألا تلك المسرة لا تدوم
ولا يبقى على الدهر النعيم
٧٧

(نِ)

لا تـقـل يـومـاً أنـا
هـكـذا قـلـت أنـا
٥٥

أفلحت إن كان لم يمت حسن
وكف عني البكاء والحزن
٧٣

ألا يا عين جودي لي شنينا
وبكّي للملوك الذاهبينا
١٧ (هـ)

(هـ)

صار البشيري إلى ربه
يرحمنا اللّه وإياه
٥٤

بأبي وأمي من عبأت حنوطه
بيدي وفارقني بماء شبابه
٧٠

يا غائباً ما يؤوب من سفره
عاجله موته على صغره
٧١

دعاني الهوى من أهل أود وصبحني
بذي الطبسين فالتفت ورائيا
٤٩

كفى حزناً بدفنك ثم إني
نفضت تراب قبرك من يديا
٦٩

أصبح القبر مضجعي
ومحلّي وموضعي
٥٦

أذنَ حيٍّ تسمّعي
اسمعي ثم عي وعي
٥٤

الموت أخرجني من دار مملكتي
والموت أضرعني من بعد تشريفي
٥٩

فيا معرضا إن الحقوق كثيرة
وإنك لا تبقي بنفسك باقيا
٥٢

هل للفتى من بنات الدهر من واقي
أم هل من حمام الموت من راقي
٤٨

فقلت لها إن البكاء لراحة
به يشتفي من ظنّ أن لا تلاقيا
٣٤

دعوتك يا بنيّ فلم تجبني
فردت دعوتي بأساً عليا
٦٨

وبالرمل لو يعلمن علمي نسوة
بكين وفدين الطبيب المداويا
٥١

***

نبذة عن المؤلف

- ولد عام ١٣٤٤هـ في مدينة عنيزة بالقصيم بالمملكة العربية السعودية.
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة.
- حصل على الليسانس من دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ.
- حصل على الدكتوراة في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ.
- عيِّن في العام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود.
- عيِّن وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ.
- درَّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب.
- انتقل منها رئيساً لديوان المراقبة العامة لمدة عامين ثم وزيراً للصحة ثم وزيراً للمعارف.
- عيِّن في عام ١٤١٦هـ وزير دولة وعضواً في مجلس الوزراء.

كتب صدرت للمؤلف

- نشر عام ١٣٩٠هـ كتاب: الشيخ أحمد المنقور في التاريخ.
- ألَّف عام ١٣٩٠هـ كتاب: «عثمان بن بشر».
- ألَّف عام ١٣٩٥هـ كتيب: «في طرق البحث».
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك «الظاهر بيبرس» باللغة العربية.
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك «الظاهر بيبرس» باللغة الإنجليزية.
- حقق عام ١٣٩٦هـ كتاب: «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» ونشره.
- حقق كتاب: «حسن المناقب السريّة المنتزعة من السيرة الظاهرية» لشافع بن علي، ونشره عام ١٣٩٦هـ.
- من حطب الليل: الطبعة الثانية عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، والثالثة عام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- ألَّف عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م كتاب: «قراءة في ديوان محمد بن عبدالله بن عثيمين».
- ألَّف بين عامي ١٤٠٩ و ١٤١٤هـ كتاب: «أي بُني» في خمسة أجزاء.
- ألَّف منذ عام ١٤١٤هـ كتاب: «إطلالة على التراث» سبعة عشر جزءاً.
- ألَّف عام ١٤١٨هـ كتاب: «يوم وملك».
- ألَّف عام ١٤١٩هـ كتاب: «ملء السلة من ثمر المجلة».
- ألَّف عام ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠١م حديث الركبتين.
- ألَّف عام ١٤٢٤هـ كتاب: «لمحة من تاريخ التعليم في المملكة العربية السعودية».
- ألَّف عام ١٤٢٥هـ كتاب: «دمعة حرى».

مطبعة سفير تليفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ الرياض
E. Mail: safir777press@hotmail.com

ردمك : ١ ـ ٥٨٨ ـ ١٠ ـ ٩٩٦٠

مطبعة سفير تليفون ٤٩٨٠٧٨٠ ـ ٤٩٨٠٧٧٦ الرياض
E. Mail: safir777press@hotmail.com